Reading on hijab

قراءة في لوحة الحجاب

نادیا سلطان

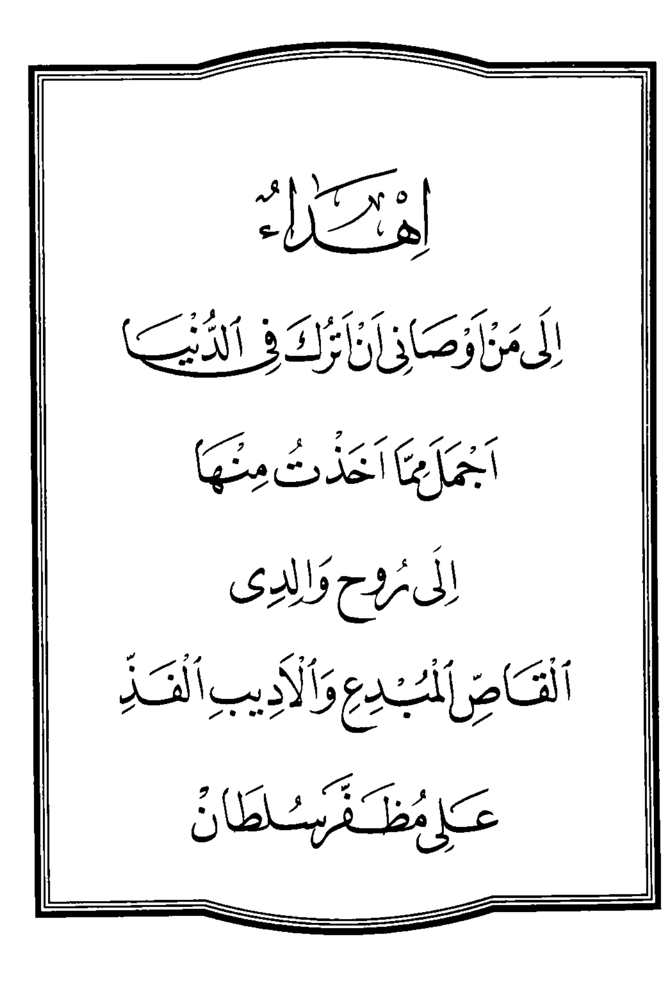
Al-Attique Publishers Inc.



الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

Al-Attique Publishers Inc. CANADA
11 Progress Avenue Unit # 7 Scarborough Ontario M1P 4S7
Tel: (416) 335 1179 Fax: (416) 335 9293
E-mail: al-attique@al-attique.com & quran@istar.ca
Website: www.al-attique.com



اهداء

الى من وصانى ان اترك فى الدنيا

اجمل مما اخذت منها

الى روح والدى

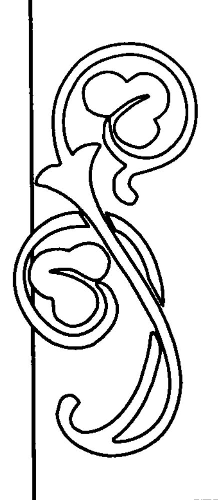
القاص المبدع والاديب الفذ

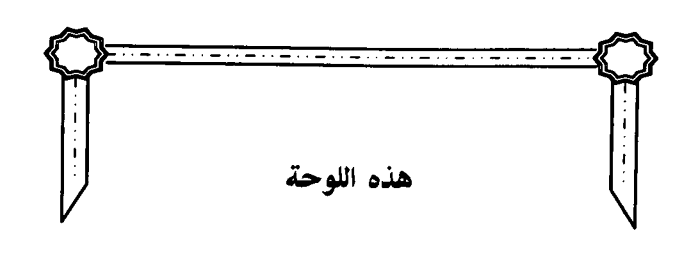
على مظفر سلطان

أتقدَّم بالشُّكر الجَزيلِ إلى الأسْتَاذِ الأديبِ

فاضل السباعي

الذي كانَ له دورٌ مبرورٌ في رؤيةِ هذا الكتاب للنُّور





هذه اللوحة

تقديم المفكر الإسلامي
د. محمود عكام

الحمد لله الآمر النَّاهي بما يُصلحنا، والصلاة والسلام على رسوله الدَّاعي إلى ما يُسعدنا، وعلى آله أولي مودَّتنا، ورضي الله عن الصَّحب سادتِنا، وبعد:

فبالأمس دَعتني إلى رؤية لوحات شكَّلتها بالألوان، وأسقطت عليها انطباعَ إنسان، واليومَ تدعوني إلى قراءةِ لوحةٍ رسمتها بالكلمات، وأحاطتها بالفهم والحكم والإيمان.

في الرسم وصفت فأجادت، وفي الكتابة صاغت فأقنعت.

عنوان لوحتنا هذه «**الحجاب**» ولَكَم ودِدت، ومنذ زمن، أن تكتب في ذي القضية امرأة، فهي الأقدر على الحديث عنها، وتقديمها، للنساء خاصة، حُكماً شرعياً في مصلحة المرأة، وليس على حسابها، أو حساب شيءٍ مِن كرامتها ومكانتها وأنوثتها.

كاتبتُنا فنانةٌ، فنانةٌ تشكيلية، ومن الفنِّ انطلقت فكتبت، ومن أحاسيسها ومشاعرها ومعاناتها نهلت فسطَّرت.

نادت ناديا: إنَّ لتقويم أيَّةِ لوحةٍ قواعد، فعلامَ إغفالُها؟!

ولي قصةٌ مع الحجاب فاسمعوها، ولا تهملوها، فأنا من جُملة المعنيَّاتِ بها، والشاهدات عليها، ولرأيي اعتبار ما دمتُ مخاطَبةً فيها وبها.

بَدأت مع «**التقوى**» وبها انتهت، فالمصطلحُ هذا مضمونٌ لا بدَّ له من شكل، وشكلٍ لا يتخلّى عن مظهر، ومظهرٍ له لباسٌ، ومَن قرَّر الانتسابَ لهذا المصطلح فليرتد لباسه، فلكلِّ شيءٍ لباسٌ، واللباسُ رمزٌ يعني الالتحاقَ، وقد يُعمَّق فيشيرُ إلى الولاء، وليس من التمجيد لله أن تنزُّهه عن ذكر لباس التقوى وتبيانه في كتابه، بل من التعظيم له والتمجيدِ لجنابه أن نؤكِّد توضيحه له، لنعيش قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] نظاماً ضابطاً مضبوطاً.

أعيدوا النظر في لوحة الحجاب، بناءً على قواعد متفقٍ عليها في عالم الحكم، وعندها: فإنَّا، أو إياكم، لعلى حقٍ، أو في وهمٍ عميق.

لا تشوِّهوا اللوحة بشطبٍ أو تغيير، فالناظرُ العابر ليس كالفاعل الآمر الحاضر، ولا تزيدوا عليها ما ليس منها، فتجعلوه بعضاً منها، فالحرص في غير محلِّه.

ولا تتركوا اللوحة وحيدة في معرض الانتماء، أو تجعلوها مع سيئاتٍ لا يناسِبنها، فالناسُ تريد كُلاً، وكلاً متناسقاً منسجماً: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) البقرة: ٨٥.

الدنيا معرض ولوحاته كُثُر، وعليك، أيها الإنسان، التجوالُ في مدة محدودة غيرِ قابلةٍ للتمديد، والشراءُ لتُكوِّن لديك معرضاً يناسبك، فاختر.

وابحث، فالعقلُ أداتُك، والقلبُ محلُّ قرارك، والنظرُ دليلُك، النهايةُ جِدُّ مُسرعة: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾[(1)].

بُوركت صاحبةُ لوحة الحجاب هذه، صدَّقت كلمةَ الله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(2)]، فانطلقت من التقوى، وسلَّمت بإيمانٍ بالآخرة وبحثت عن الفائزين، فرأت في كتاب ربِّها ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾[(3)] فصمَّمت أن تبقى مع التقوى.

وتابعت فقرأت: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[(4)]، فقالت: اللهم لوحة بلوحة.

وأنا أقولُ، وأنقل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[(5)]. والسلام عليكم.

د. محمود عكام



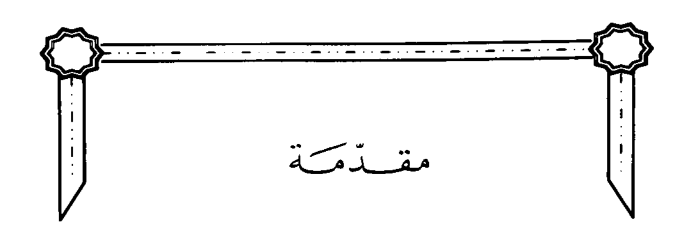
(1) غافر: ٤٠

(2) الأعراف: ١٢٨.

(3) النبأ: ٣١.

(4) القمر: ٥٤، ٥٥.

(5) غافر: ٦٠.



مقـــدّمـــة

«بالنسبة إليَّ، بصفتي إنسانة تؤمن بالتوحيد، وتنتهج سنة النبي محمد ﷺ رجوتُ أن يكون تقرُّبي إلى الله غير مرهونٍ بساعات دوامٍ محددةٍ، متى انتهت أوقاتها الخمسة خلعت الزي الرسمي، الخاص بالمرأة، وعدتُ إلى سابق عهدي!».

أعترف بأنني أُقحمتُ في هذا الموضوع إقحاماً!

لم أكن أسعى يوماً إلى أن أكتب في قضيةٍ كهذه، ولم يكن في نيَّتي أن أسلخَ ساعات وساعات كي أدافع عن مثل هذه القضية.

كنت أعتقد أنَّ من حقِّ كلِّ إنسانٍ أن يعيش ضمن ساحةٍ ضئيلةِ الامتداد، يمارس فيها بعض الحريات التي لا يتجاوز فيها حريات الآخرين: في طعامه، شرابه، يقظته، منامه، لباسه.

مثلاً: لم أكن أتخيَّل أن يُعاقَب إنسانٌ ما لأنه أكل ذات يومٍ ثريداً!

أو لأنَّه انتعل خُفَّاً أبيض، أو ارتدى سروالاً أزرق!

أو لأنه احتسى شاياً، وليس زنجبيلاً!

ولأحكِ لكم هذه القصة:

قرب داري في مدينة حلب الشهباء، حديقةٌ جميلة غنَّاء، باسقةُ الأشجار، صدّاحة الأطيار، تُدعى: «حديقةُ السبيل».

كنت أسعى إليها كل يوم، فأمشي في ربوعها ساعةً من الزمن، ناشدةً الاعتدال في الصحَّة والقوام، مرتديةً بدلةً قطنيةً، ومنتعلة خفاً مريحاً.

كنت ألتقي أحياناً ببعض النسوة، فنتجاذب أطرافاً من أحاديثَ شتّى، فتركض بنا دقائقُ الساعة أسرعَ ممَّا تمضي خطواتنا.

ذات يوم، من أيام الربيع المتوهِّجة حُسناً وألقاً، سعيتُ إلى حديقتي هذه وأنا أضع على رأسي غطاءً، وعلى بدلتي الرياضية معطفاً. التقيتُ بصديقتين لي... فإذا بإحداهما تُطلق صيحات استنكاريةً، وترشقني بعبارات تنعي فيها عليَّ، بأسفٍ وحزنٍ بالغين، ثقافتي الفكرية، وإبداعاتي الفنية!

وأما الأخرى فقد آثرت الإعراض عني بصمتٍ رزين، مغيِّرةً مسارَها، كيلا تضطرَّ مرغمة إلى مرافقتي كعهدها سابقاً.

باغتتني ردودُ الأفعال هذه، وخاصةً أني كنت أرى أنَّه من غير المستحسن أن يُملي أحدُهم على الآخر ما يلبس، أو متى ينام! فقد زارتني إحدى هؤلاء النسوة، المُعرِضاتِ عني، في إحدى معارضي الفنية، وهي ترتدي معطفاً أحمر تتأرجح تحته أذيال فستانها البرتقالي، ونظرتُ إليها آنذاك مشفقةً بعينَي الفنَّانة العاشقة للتناسُق والجمال، وكتمتُ استيائي، كما تقتضي اللباقة الاجتماعية، فلم أدَع أماراتِ الامتعاض تطفو على وجهي، وأنا أخالس النظر إلى ملابسها المجافية لقواعد الأناقة!

ومرت أيام وشهور...

وسافرتُ إلى كندا وأمريكا غير مرَّة، فجابهتني كثيرٌ من هذه

الآراء التي تقتحم ساحة حرٌيتي الشخصية، وقرأتُ بعضاً من الكتب، وكثيراً من الصحف، وتضافرت كل الأقوال: المسموعة والمكتوبة، لتصبَّ في بحيرة النقد، نقدي، وأحياناً الانتقاد اللاذع!

كيف أجبتُ؟

قد تتساءلون: كيف أجبتُ، وأنا أتعرَّض لهذه الانتقادات؟

كان الدفاع يُربكني، كما يرتبك أحدهم لو سُئل:

ترى لِمَ تُطِلُّ علينا شمس الصباح من المشرق دون المغرب؟!

أو: لِمَ يطير الغراب، ولا يعوم كما يفعل البط؟!

أو: لِمَ لا يكون البحر حلواً كماء الجدول؟

أو: لِمَ لا يكون النرجس أحمرَ والبنفسج أصفر؟!

أحسبُ أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج بعض الوقت، إلى أن يتأتى لأحدنا أن يوقظ قدرة الإقناع الراقدة في ظلال مسلَّمات الأمور.

مثلاً، اعتقد أنه من البديهي عند كلِّ الخلق أن القرب من الله له أماكنُهُ، وطقوسه، ولباسه، وأوقاته، فيشعل أحدهم شمعة، ويسعى آخرُ إلى صومعة، ويوقد أناسٌ البَخُور، ويقدِّم آخرون القرابين والنذور.

أما عند الأمَّة المسلمة، المتَّبعةِ رسالةَ النبي العربي محمد ﷺ فالتقرُّب إلى الله عمليةٌ لا تقبل التوقف عند الإنسان المسلم:

الزمان على امتداد حياته، سجلٌ يحاسَب عليه.

وأعماله الدنيوية كلُّها عبادةٌ، لأنَّها مقترنةٌ بذكر الله مُتَوَّجةٌ بطاعته، منضبطةٌ بتعاليمه يُراعي فيها توازناً دقيقاً بين التكاليف والطاقة، بين الواقع والغيبيَّات، بين العمل والجزاء... بينه وبين باقي الخلق من المسلمين وسواهم. فلكلٌ قداستُه، وحريته، واحترامه.

صندوقُ مدَّخراته قبرُهُ، إذا آبَ إليه وجدها فيه كاملةً دون زيادةٍ ولا نقصان. أمَّا طقوسُ عبادتِهِ:

فله ديارٌ مقدَّسة تُشدُّ إليها الرِّحال، فينضُوا الرجال لباسهم، ويرتدون ما يشبه الأكفان، ويَسعَون شُعثاً مغبَّرين، حكَّاماً ومحكومين، فقراءَ وأغنياء، عظماء ومساكين. وتُسدِلُ النساء أرديتهن، فيبدو الوجه خاشعاً، وترتفع الأكفُّ المجرَّدة بالدعاء.

أمَّا مكان عبادته:

فقد جُعلت له الأرضُ على رحابتها مسجداً وطَهُوراً، فتمَسُّ الجباهُ كلُّها الثرى خمس مراتٍ في اليوم، معلنةً الخضوعَ والانقياد، متّجهةً إلى مركزٍ واحد، في زِيٍّ واحد، للمرأة، طالبةً التقرُّبَ من إلٰهٍ واحد.

بالنسبة إليَّ بصفتي إنسانةً تؤمن بالتوحيد، وتنتهج سُنَّةَ النبي محمد ﷺ رجوتُ أن يكون تقرُّبي إلى الله غير مرهونٍ بساعات دوام محدَّدة، متى انتهت أوقاتُها الخمسة، خَلعتُ الزِّيَّ الرسميَّ، الخاصَّ بالمرأة، وعدتُ إلى سابق عهدي!

لمَ أشأ أن يكونَ لي زيَّان:

أحدُهما: للتّقرُّب إلى الله، والآخر: للتّقرُّب من الناس. أردتُ أن أكون بمظهري أينما كنتُ، دائمةَ القُرب.

وعرفتُ أنَّ ما شرحتُ آنفاً، ودعوتُه بالبديهيِّ، ليس كذلك بالنسبة إلى كثيرٍ من النَّاس، لسببٍ أو لآخر، وعزمتُ أن أخرج من دائرة البديهيات، ناشدةً استراتيجيةً أخرى، اتّخذتُ لنفسي فيها موقف الدفاع وليس الهجوم.

وابتدأتُ رحلةً جديدة من القراءة، والبحث، والتَّأمل، والابتهال، ثمَّ الإعلان والنداء...

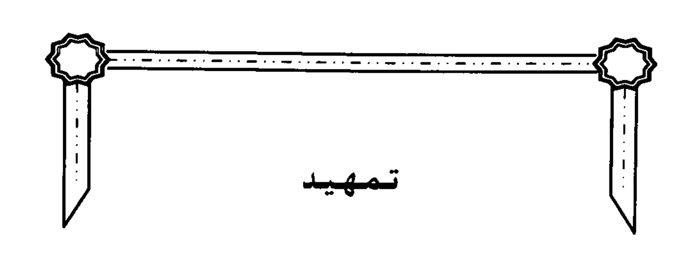
فالغايةُ هي القُرب، والمبتغَى هو القريب جلَّ وعلا.

نادیا مُظفَّر سلطان

حلب الشهباء

٨/ذي القعدة/ ١٤١٨هـ. ٦/آذار/ ١٩٩٨م





تمهيد

الإنسان له مركزُ الصَّدارة.

هذا ما تعلنه الشريعةُ الإسلامية.

وضمن هذا التصوُّر، فإنَّ الإنسان أغلى مِن كلِّ قيمةٍ مادِّية. إنه سيِّد هذه الأرض، وخُلِق ليكونَ الخليفة في الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

هذا هو الإعلان العُلويّ الذي يقرِّرُ أنَّ الإنسان هو أعزُّ

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣٤.

المخلوقات وأكرمها، ويتجلّى هذا في أمر الملائكة بالسجود له. وفي طرد إبليس، ثم في رعاية الله له أولاً وأخيراً.

من هذا الاعتبار تنبثق جملةُ اعتباراتٍ ذاتُ قيمةٍ في عالم الواقع، وفي عالم التصوُّر على السواء.

في مجال التصوُّر، ترسم الشريعة الإسلامية للإنسان، هذا الكائن المستخلف في الأرض، صوراً كثيرةً متلاحمة متكاملة. صوراً واضحةَ الملامح، جليَّةَ القَسَمات، محدَّدةَ الصفات. فبرزت شخصية الإنسان المسلم ذاتَ أبعادٍ جليَّةٍ، وظلالٍ عميقة، لا لبس فيها ولا نقص ولا غموض.

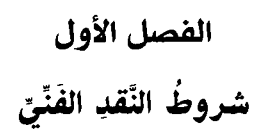
. ضمن سلسلة هذه اللوحات، مجموعةٌ من الصُّور رَسَمَت المرأةَ في الإسلام، ومن هذه المجموعة الأخيرة، اخترتُ لوحةً ثار حولها كثيرٌ من الجدل، واحتدمت الآراء، وتباينت وجهات النظر، وعلت بعض الأصوات، وخفتت أخرى، ثم غابت في غياهب الزحام: «**لوحة الحجاب**».

في الواقع، في وقت ما من الماضي، لم أكن أدرك أنَّ لهذه اللوحة قيمةً كبرى. فاللباس خارجَ أسوار دور الأزياء العالمية، لم يكن باعثاً على الجدل، واللباس ضمن مقاييس ألمع مصممي الأزياء، عرضٌ وطلب، ليس إلاّ.

وخارج هذه البيوت هو حريةٌ شخصية بحتة، حتى في أكثر العهود اضطهاداً لحرية الإنسان، وامتهاناً لكرامته.

لكن أمام لوحةٍ اسمها: «**الحجاب**» علت الأصواتُ الناقدة معترضةً، ثم مستنكرةً فمُهاجمة...

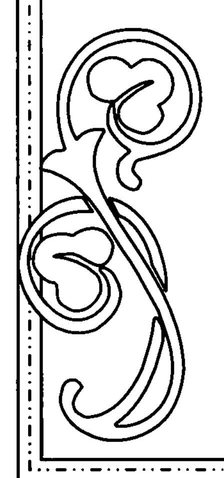
وأما هذه اللوحة لنا وقفة، وقفة نقد.

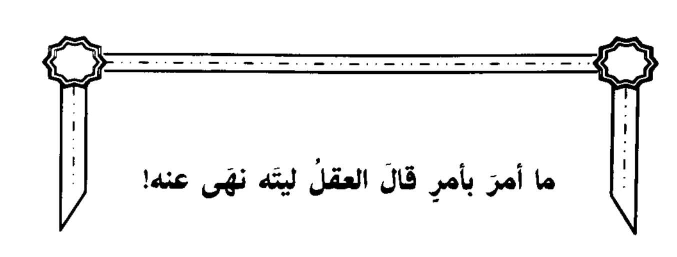


الفصل الأول

شروطُ النَّقدِ الفَنِّيِّ

- زاوية رؤية صحيحة.
- سلامة النظر.
- التمتع بثقافة كافية.
- سلامة النيَة.
- الإنارة الكافية.





ما أمرَ بأمرٍ قالَ العقلُ ليتَه نهَى عنه!

النقدُ الفنيُّ مسألةٌ تخضع للموضوعية، والموضوعية بدورها قضيةٌ تخضع لمقوِّمات العقل، وللمناقشة المنطقية التي لا يحكمها الهوى، ولا تنقاد لعاطفة.

والشريعةُ الإسلامية شريعةٌ تحترم العقل، فالعقلُ هو طريق المعرفة، والمعرفة كانت السبيل لتكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات، بما فيها الملائكة المنزهون عن الخطأ!

أيُّ تكريم للعقل! وأيُّ تقديس للعلم! وأيُّ إجلالٍ للمعرفة! ضمن التصورُ الإسلامي؟! في القرآن الكريم تكرَّرت مخاطبةُ العقل بصيغ عدَّة:

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1] ثلاث عشرة مرة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[2] ثماني مرات.

﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[3] مرتين.

﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾[4] مرةً واحدةً.

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٧٣.

(٣) آل عمران: ١١٨.

(٤) يس: ٦٢.

كما خاطبَ الناس بصيغة ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1] ستَّ عشرة مرةً. و﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[2] مرَّتين.

وفي هذا دليلٌ كافٍ على فضل العقل وأصحاب العقول.

تروي كتب السيرة أن أعرابياً، عاقلاً بالفطرة، دخل على النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، فبيَّن له الرسولُ ﷺ أوامرَ الإسلام ونواهيه، ولما خرج من عنده أعلن إسلامه. فقال له قومه: بمَ عرفت أنه رسول الله؟ فقال الأعرابي: «ما أمر محمدٌ ﷺ بأمرٍ قال العقلُ: ليته نهى عنه؛ ولا نهى عن شيء قال العقل: ليته أمر به».

لذا فإنَّ التصوُّر الإسلامي يتَّفق مع قواعد النقد السليمة، بغية الوصول إلى رأيٍ سليم للوحة «**الحجاب**» ضمن ساحة النقد الفني.

والنقد، الذي يُرجى من ورائه الوصول إلى قرارٍ صائب، وحُكم سديد يتَّبعه أولو الألباب من الناس، له شروطٌ عدَّة، يجب توافرها في أيَّة لوحةٍ فنيةٍ لدي تقييمها، وهذه الشروط هي:

(١) **زاوية رؤية صحيحية**: اختيارُ استراتيجيةٍ سليمةٍ لتأمُّل اللوحة.

(٢) **سلامةُ النظر**: أن تكون للناقد عينان سليمتان من أيَّة آفةٍ.

---

(١) البقرة: ١٧٩.

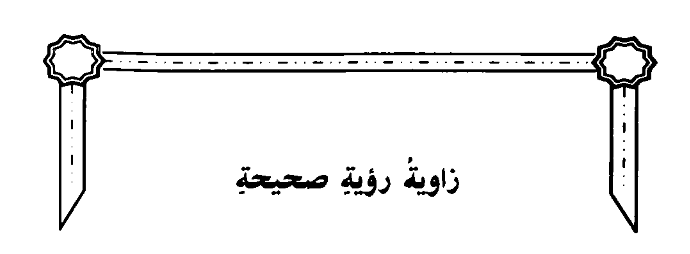
(٢) طه: ٥٤.

(٣) **التمتع بثقافة كافية.**

(٤) **سلامة النيَّة:** وتتجلَّى في أن يكون للناقد موقفٌ محايد، وألاّ يكون له موقفٌ معادٍ سبقَ الكشفُ عنه.

(٥) **إنارةٌ كافية:** تُمكِّن الناظرَ إلى اللوحة من رؤيتها بوضوحٍ من جميع الجهات.





زاويةُ رؤيةٍ صحيحةٍ

ليست الزاويةُ التي يقف فها الناقد المتأمِّلُ للوحةٍ ما، إلاَّ موقعاً محدَّداً يؤثِّر في رأي الناقد إلى حدٍّ كبير. وهذه الزاوية شديدةُ التحكُّم في تكوين التصوُّر والانطباع المأخوذَين عن اللوحة. والحكم عليها بعدئذٍ.

فالوقوفُ في الزاوية الحادَّة لأقصى اليسار مثلاً، يؤدي إلى رؤيةٍ خاطئة هي ذاتها التي يتمخَّض عنها الوقوفُ في الزاوية الحادَّة لأقصى اليمين، ولا يمكننا في الحالتين أن نحصل على الرؤية الصحيحة المطلوبة.

وهكذا عندما ينمو الإنسان في بيئةٍ تتَّسم بتصوُّرٍ ساذج وممارساتٍ هامشية لأيِّ منهجٍ أو عقيدة، فإنَّه سيدرك، حتماً، مع مرور الوقت، فداحةَ السذاجةِ والهامشية التي ترعرع في ظلالها، ممَّا يدفعه إلى محاولة الانتقال، وبعنف، إلى الجهة المعاكسة تماماً، كردِّ فعلٍ مفاجىء يصدر عنه.

وإنَّ المغالاة في التمركز في أحد الطرفين يخلق زيادةً أو نقصاناً في التصور يُفضي إلى نتيجةٍ سلبية تتمثَّل في صدور حكم تنقصه الموضوعية التي ننشدها.



هل يخفض الحجاب حقاً، من قيمة أحد مفاتيح الحضارة الإسلامية الأساسية؟

لننظر في رأي الباحثة المغربية «فاطمة المرنيسي»، وهي تقف أمام لوحة الحجاب... تقول:

(من الواضح أن مفهوم الحجاب هو أحد تلك المفاهيم الأساسية لمفاتيح الحضارة الإسلامية، كمفهوم الخطيئة في الحضارة المسيحية، أو مفهوم الاعتماد (Credit) في الحضارة الأمريكية الرأسمالية، وإنَّ تخفيض تمثيل هذا المفهوم بقطعةٍ من القماش فرضها الرجال على النساء كي تحتجب عندما تمشي في الشارع، هو بالفعل إفقارٌ لهذه العبارة إن لم نقل: إنَّه تفريغ لها من معناها)[1].

لقد نشأت هذه الباحثة في بيئةٍ لم تُلقَّن فيها المعلومات الأولية عن الشريعة الإسلامية بشكل سليم، بل بأسلوبٍ ساذج ومبهم، وقد أدركت الكاتبة ذلك في سِنِي النضج والاكتمال. وتأكَّدت، بعد اطِّلاعها على الحضارة الغربية، من ضحالة المعلومات التي ارتشفتها في سِنِي اليفاع.

وتتابع الباحثة المغربية قولها: (على امتداد طفولتي حافظتُ على علاقة غامضة جداً مع القرآن، الذي كنا تعلمناه في مدرسةٍ قرآنية ذات آداب صارمة، بصورة خاصَّة.

وفي حساسيتي الطفولية كان يبدو لي أنَّ الإسلام وحده هو

---

(١) فاطمة المرنيسي: «الحريم السياسي» ص١٢١ .ط/٢، دار الحصاد. دمشق١٩٩٣.

الإسلام المُفعَم بالخيال لجدَّتي الأميَّة «لالا ياسمينا» الذي يسمح لي بالوصول إلى ديانةٍ شعرية.

أما في المدرسة القرآنية. فأصغر غلطة في اللفظ كانت تُصلح ويعقبِها العقاب: «يجب قراءة القرآن كما نزل من السماء».

الثلاثاء كان يوم التلاوة: كلُّ غلطة في اللفظ، حسب طبيعتها، وحسب ثقلها، كانت تتناسب مع عدد من الضربات المدارة من قبل «المحضرية» الأكبر بين الطلاب، ونادراً الأكثر نباهة، إلا أنه يمكن شراؤهم بالكرز والأجاص والرمان حسب المواسم)[١].

وهكذا، وبردَّة فعل مناهضة لاستراتيجية العَشرية الأولى التي وقفت فيها الكاتبة، فإنَّها ستغيِّرُ موقفها بشكلٍ عنيف ومعاكس ومعادٍ. مما جعل نظرتها الناقدة، لبعض الصور التابعة للتصوُّر الإسلامي، مبنيَّة على أساسٍ متطرِّف ولا عقلاني.

تقول الكاتبة:

(ولكنَّ الحجاب سقط على المدينة، وبتر ذكري انطلاقة الحرية هذه، وبعد خمسةَ عشَر قرناً فإنَّ العنف الاستعماري هو الذي سيُجبر، وبشكل متناقض، الدول الإسلامية لإعادة فتح سجلٍ حقوق الفرد والمرأة. فكلُّ نقاشٍ حول الديمقراطية يمرُّ بها، بهذه القطعة الصغيرة المضحكة من النسيج، التي غالباً ما تكون من الموسلين الناعم التي يُطالب بها التاميُّون في أيامنا كما لو أنها جوهر الهوية الإسلامية)[٢].

---

(١) فاطمة المرنيسي: المصدر نفسه. ص٨٤.
(٢) فاطمة المرنيسي: المصدر نفسه. ص٢٤٠.

إنَّ عنصر الكوميديا، الذي وفَّرته قطعة القماش هذه، كانت نتيجة للزاوية الحادَّة التي انتقلت إليها الكاتبة، فكان طبيعيًّاً أن تتشوَّه عندها الرؤية، وتصبحَ مضحكةً بشكلٍ ما. وهي لن تقهقه إذا صادف مرورها بزيٍّ هنديٍّ، أو ياباني، أو إفريقي. والسببُ أنها تتأمَّل كلَّ لوحة من هذه الأزياء، وهي في المكان الوسط المعتدل بالنسبة لحضارتهم، أو الثقافة المنقولة إليها عنهم.

والحقُّ أنني لم أذكر أنَّ أحداً سخر من هذه الأزياء على مرِّ العصور، أو هزىء مثلاً من العُري الإفريقي لبعض القبائل البدائية التي تقطن الغابات.

۞ ۞ ۞

.... وهل من حرب نفسيةٍ تعرَّضت لها المتحجِّبة؟!

وهذا مثالٌ آخر لناقدٍ يدلي برأيه في لوحة الحجاب... يقول الكاتب الليبي «الصادق النيهوم»:

(عندما تحتجب المرأةُ المسلمة آملةً أن تفوزَ برضاء الوعَّاظ، فإنَّها في الواقع لا تلبس عباءةً فقط، بل تتقمَّص شخصيةً مستحيلة، أولُ مفاجأةٍ فيها أنها شخصيةٌ لم يخلقها الله).

لقد شنَّ كثير من الكتّاب والكاتبات الذين لم يفقهوا أحكام شريعتهم ولم يعلموا الحكم من أحكامها بسبب جهلهم بها وبسبب ثقافتهم الغربية التي نهلوها من بلاد الغرب

النصراني والتي كثيراً ما تصور المرأة على أنها عبارة عن سلعة للمتعة يحق للرجال أن يتمتعوا بها متى شاؤوا وكيف شاؤوا. لقد شن هؤلاء حرباً لا هوادة فيها على المرأة المسلمة ولباسها الشرعي، الذي يخيل أعلى درجات الحشمة والستر، والذي يظهرها أكثر أدباً ووقاراً، فتارة يتهمون المرأة بالجهل وعدم المعرفة والثقافة الحديثة وعدم الاطلاع على أفكار الغرب المتحررة التي تدعو إلى خروج المرأة من حشمتها وأدبها وأن تبرز مفاتنها وتظهر محاسنها، وتكشف عن جسدها، وتخالط الرجال الذين يتربصون بها كالذئاب الجائعة إن تظاهروا أمامها بحرصهم عليها وبحبهم لها، ولا تدري المسكينة أنها هي الفريسة، وأن كل ما يروجه هؤلاء المتفلتون من أحكام الدين ومنظمة القيم والأخلاق إنما هو أسنان مكشرة تريد أن تفترسها وإن تظاهرت أنها تبتسم لها.

وقد يصور بعض هؤلاء الكتاب هذه المرأة بأنها المسلمة الملتزمة المحتشمة بأنها مريضة نفسياً أو مسحورة أو خائفة من أحكام المجتمع وقوانينه وأنها مشلولة العقل ومريضة وتحتاج إلى علاج ودواء، وأمثال هذه الافتراءات الكاذبة والتهم الباطلة التي لا يفتأ أصحابها ليكلونها للمرأة المسلمة يدفعهم إلى ذلك الحرص الكاذب عليها.

إنَّ إعلان الكاتب رأيَه المفرطَ في الاشمئزاز، في كون الحجاب مشكلةً سقطت فيها المرأة فدنست جسدها، وشلت تفكيرها، فأصبحت إنساناً مريضاً يستحق الرِّثاء والشفقة. هذا الإعلان يدفعني إلى تساؤلٍ كبير:

ترى إذا استبدلت المرأة المتحجِّبة بعباءتها زِيًّا حديثاً، هل يبطل مفعول السحر فجأةً؟ وتتحوَّل إلى امرأةٍ حكيمة ناضجة مفكِّرة، فيَطهُر جسدُها، ويتحرر عقلُها، وتَثبُت براءتها من نقص العقل والدين؟!

ترى هل تكبر هذه الطفلة الساذجة بمعجزة؟ فتتمزَّقُ عباءتُها القديمة، لتبرز لنا مثل هالك (Green Hulk)، امرأةً متعلّمة مثقّفة؟

وهل الكثيرات من النساء اللواتي يظهرن بمظهر حضاريٍّ أنيق، يَفُقنَ فيه عارضات الأزياء، انعتقن بهذه الرُّقية السحرية من التخلُّف والجهل، ودخلن عالم المفكّرات الباحثات؟

متى كان الوعاء يوماً عنواناً كافياً للمادَّة التي يحوي؟ وكم من وعاءٍ ثمينٍ حمل السُّمَّ الزُّعاف! وكم من إناءٍ متواضع قدّم البُرءَ والشفاء!

☼ ☼ ☼

ليس بخلع المرأة عباءَتها يرتفع مستواها!

وإذا كانت امرأةُ العباءة تحمل بصمات بيئتها المتخلّفة، فإنَّ خلع العباءة ليس هو الحلَّ قطعاً. بل لعلّه حلٌّ سطحيٌّ ساذجٌ يُضاهي المشكلةَ الأولى في سذاجته.

إنَّ تنمية المرأة فكريًّا وثقافيًّا وروحيًّا مطلبٌ أساسيٌّ من مطالب الشريعة الإسلامية. وقد بيَّن الرسول الأعظم ﷺ لأمَّته إحدى فرائض الشريعة الغرَّاء بقوله:

«طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم[1]، وإنَّ طالبَ العلم يستغفرُ له كلُّ شيء، حتى الحيتانُ في البحر»[2].

وروى أبو بردة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة يؤتَون أجرَهم مرَّتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدرك النبيَّ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه، فله أجران. وعبدٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ اللَّهِ تعالى وحقَّ سيِّده، فله أجران. ورجلٌ كانت له أَمَةٌ، فغذَّاها فأحسَنَ غذاءَها، ثم أدَّبها فأحسن أدبَها، ثمَّ أعتقها وتزوَّجها، فله أجران»[3].

لقد كانت النساء يطالبن رسول الله ﷺ بمزيدٍ من فُرَص التعليم، وقد رُوي عن أبي سعيد أنه قال:

«جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجالُ بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه. تعلِّمنا ممَّا علَّمك الله. فقال: **«اجتمِعنَ في يوم كذا وكذا، في**

---

(١) إنَّ لفظة «مسلم» تشمل الذكر والأنثى معاً، كلفظة «المواطن»، و«المؤمن» دون أي تفضيل. كما روي عن أم سلمة رضي الله عنها. أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط: **«أيها الناس»**. فقالت لماشطتها: استأخري عني. فقالت لها الجارية: إنَّما دعا الرجال، ولم يدع النساء فقالت أم سلمة: إنِّي من الناس. أخرجه مسلم، كتاب الفضائل: باب إثبات حوض نبينا ﷺ برقم: ٥٩٣٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه، وتتمة الحديث: «... **وواضع العلم عند غير أهله كمقلّد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب**»، كتاب المقدمة، باب: ١٧، حديث: ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ج ٨١/١.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب: ٧٠، حديث ١٥٤، ج١١٣٤.

مكان كذا وكذا». فاجتَمَعن، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلَّمهنَّ ممَّا علَّمه الله»[1].

من هذه الأحاديث نلمس مدى حرص النساء البالغ على سماع أحاديث رسول الله ﷺ في المسجد، فهنَّ لم يكتفين بمشاركة الرجال في ذلك، بل أردن أن يكون لهنَّ حديثٌ خاصٌّ بهنَّ. وإنَّ استجابة الرسول ﷺ لمطلبهن ما هي إلاَّ إعلاءٌ لشأن المرأة وارتقاءٌ بها، في التصور الإسلامي، إلى درجةٍ رفيعة تُهيب بأمَّة الإسلام أن تعدَّه قدوةً لها في تربية جيلٍ إسلاميٍّ من الرجال والنساء، يعتمد على هذا التصور الراقي.

۞ ۞ ۞

المسلمةُ تستلفت بحجابها الأنظار

وإذا عدنا إلى قطعة القماش المضحكة، هويةِ المرأة المسلمة، وجدنا أنها يمكن أن تكون رقعة ثمينة وغالية، تستقي قيمتها من الرأس الذي تغطي، ولا ننسى أن للدول أعلاماً وأن الأعلام تكبر بالدول، ولا تكبر الدول بأعلامها، فالحجاب هوية المرأة المسلمة، يعرِّض المرأة لتسليط الأضواء عليها، ويقف ألاف النقاد أمام صورتها لاقتفاء العيوب والثغرات، وقد وُضعت تحت أدق المجاهر وخضعت لأعتى أنواع المراقبة والخطيئةُ التي تغفر لسواها لن تغفر لها أبداً.

---

(١) متفق عليه، البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ٩، حديث ٦٨٨٠. ج٦/٢٦٦٦، ومسلم: كتاب البرِّ والصلة والآداب، باب: ٤٧، حديث ٢٦٣٣، ج٤/٢٠٢٨.

وإنَّ إدراك المرأة المحجبة خطورةَ موقفها ليهيب بها أن تكون جاهزة علمياً وثقافياً وفكرياً. حتى تكون جديرة بالوعاء الذي يحتويها، لا ظلاً وهمياً لرجل مستبد لا وجود له نهائياً مضموناً أو صورة من صور الشريعة الإسلامية للإنسان.

أمَّا أمثال هؤلاء الكتاب والباحثين، الذين ذكرت، فلا يمكن أن ننفي عنهم صفة النية الحسنة تجاة الشريعة الإسلامية. بلْ لعلي أراهم يسعون جاهدين إلى «**عَصرنة**» و«**تحديث**» الدين الإسلامي، ونفي تهمة التخلف والرجعية عن المرأة المسلمة، ودفعها في موكب الحضارة الحديثة، وأن تستبدل بهويتها هوية أخرى حديثة وبرَّاقة، غير أنها مزيفة «هوية المرأة العصرية»... ولكن يمكن القول: إن بعض النياتِ الحسنة يؤدي إلى الهاوية.

فعندما يمسك هؤلاء المفكرون بمبضع الجراحة ليستأصلوا الأورام الخبيثة، والأفكار الضَّالة، والممارسات الشاذَةَ الدخيلة على الفكر الإسلامي، عليهم أن يملكوا من الدقة المهنية، والأمانة العلمية، والأعصاب الثابتة، والنزاهة الفكرية، التي تقيهم من المبالغة إلى حدٍّ بتر الأعضاء السليمة، وإلا فإنَّ عملية جراحية بأبعاد «الميكرون» يمكن أن تتحول، مع الأسف إلى عملية جزارة يستبدل فيها الساطور بالمبضع!

وإذا عدنا إلى ساحة النقد السابقة، نجد أنَّ القفز المفاجىء من زاوية لأخرى سيؤدي حتماً إلى الارتطام بأسوار اللاموضوعية واللاعقلانية التي كان من المفترض تحقيقها، إضافة إلى أن عملية

الوثب هذه، ستضيّع فرصةَ تحديد موقف الشريعة الإسلامية التي تقدم لنا في هذه الساحة مقعد الاعتدال، وترسم لنا حيزاً مساحياً نستطيع الوقوف فيه، والنظر والتأمل، ثمَّ إعلان الرأي دون إفراط أو تفريط.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وإضافةً إلى استراتيجية الوسط التي تقدِّمها هذه الآية. فإنَّها توضح أنَّ رسول الله ﷺ هو الذي بلَّغ للناس شرعَ الله المعتدل، فكان إماماً مُقسطاً، وقدوةً حسنة ومثلاً أعلى في الاعتدال.

وقد ظهرت في أيامنا هذه فئتان:

أولاهما: تشكِّك في أقوال رسول الله ﷺ:

والأخرى: تطعن في رواية أحاديثه.

وكلتا الفئتين تسعى إلى تقليص دوره ﷺ في أن يكون شاهداً على وقفة الوسط التي ارتضاها لنا ديننا الحنيف.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[2].



(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٦٥.

جهود تُبذل في غير تكافؤ

ولو عدنا إلى الكاتبة «فاطمة المرنيسي» لوجدنا أنها قد بذلت قصارى جهدها في كتابها «الحريم السياسي» وذلك لتتبُّع حياة أحد رواة الحديث «أبو بكرة»، بغية إثبات زيف الحديث الذي رواه:

«لن يفلح قوم ولّوا أمرَهم امرأة»[(١)].

وأمام هذه الجهود المبذولة يتراءى أمامي سؤال كبير:

ترى هل استرسلت الكاتبة في تقصي حياة المؤرخين ورواة الحديث، وقدَّمت الجهود المضنية، كما فعلت بحديث أبي بكرة، عندما ألفت كتبها فحكت عن سيرة دفن رسول الله ﷺ[(٢)]، وقصة حياة «سكينة بنت الحسين» حفيدته[(٣)]؟ أم إن التعب

(١) فاطمة المرنيسي: مصدر سابق، ص٧١ ـ ٧٧، والحديث المذكور أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب: ١٧، حديث: ٦٦٨٦، ج٦/٢٦٠٠.

(٢) تقول في كتابها السابق. ص: ٥٠: «توفي النبي يوم الإثنين، فتُركت جثته منسيَّة في إحدى زواية غرفة عائشة، ولم تدفن إلا في ليل الأربعاء... كان جسد الرسول مسجىً في بيته وفوقه عباءة، بينما كان الجميع مشغولين عنه بانتخاب خليفته، ولم يكن هناك من يفكر بغسله ودفنه».

(٣) إنها تتساءل: «من هنَّ أولئك النساء المسلمات اللاتي قاومن الحجاب؟ إنَّ أشهرهن سكينة إحدى حفيدات النبي ﷺ من ابنته فاطمة زوجة علي الشهير، الخليفة الراشدي الرابع، السيء الحظ، الذي ترك السلطة لمعاوية، واغتيل من أول إرهابي سياسي مسلم.

أدركها، فلم تستطع بذل الجهود ذاتها، أو لعله الهوى الذي يحثُّ المرءَ أحياناً على التوجه إلى زاوية، والتنحي عن أخرى لا تلائم هواه؟!

وهكذا نعود إلى دوافع الاستراتيجيات المتَّخذة مسبقاً، والتي تتدخل ليس في إصدار الأحكام والآراء فحسب، وإنَّما في التصدي لنفي بعضها، والأخذ بأخرى.

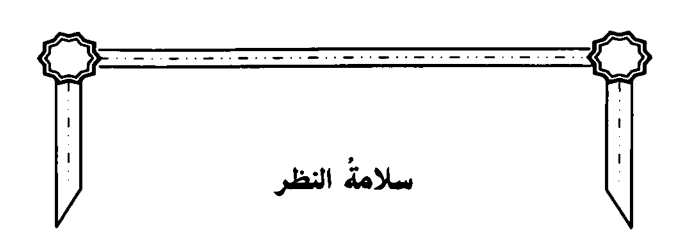
قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1].



= ولسوف تشهد سكينة من جهة أخرى مذبحة والدها في كربلاء، وهذه المأساة تفسر جزئياً تمردَها ضد الإسلام السياسي العاتي والمستبد، وضدَّ كلّ ما ينتهك حرية الفرد، بما في ذلك الحجاب».

المصدر السابق: ص٢٤٤.

(١) الأنعام: ١١٩.



سلامةُ النظر

بين الأظفار الملوَّنة واللباس الخشن

تحت عنوان «المرأة والقيادة في الإسلام» ألقت السيدة «إلفة الإدلبي» محاضرةً تدعو فيها للاقتداء بالنساء والمسلمات اللواتي استلمن فيما مضى مناصب قيادية، ومهمات حساسة، فحمل بعضهن السلاح، ودافعن عن الإسلام، كنسيبة بنت كعب[1]، التي كانت تدافع عن رسول الله ﷺ بسيفها يوم أحد، حين تخلى عنه كثير من الرجال.

عند هذا القدر كانت الصورةُ جليَّة، والشخصياتُ واضحةً، والنقدُ سليماً لا غبار عليه. وفجأة، تنقل الكاتبة عن إحدى المحجَّبات حادثة جرت مع صديقةٍ لها تعمل على الآلة الكاتبة في إحدى المؤسسات العامة، وتصفها بقولها:

(وكان لها يدان رخصتان بضَّتان، وكانت تعتني بهما فتطيل أظفارَها، وتصبغها مرةً بالأحمر القاني، ومرةً بالفاتح، أو

(١) إلفة الإدلبي: «عادات وتقاليد الحارات الدمشقية» ص٣٩. دار إشبيلية. دمشق ١٩٩٦.

البرتقالي، وتزّينُ أصابعها بخواتيمَ ملونة، وكان مكانها مقابلاً لمكان المحاسب، فقال لها مرة: أرجوك يا آنسة أن تنقلي إلى مكان بعيد عني، لأنني كلما رأيت أصابعك الرشيقة تداعب الآلة الكاتبة ينشغل بالي، فأخطىء الحسابَ، أنا الذي ما أخطأت في حساباتي أبداً)[1].

ثمَّ تتابع الكاتبة فتسرد نقاشاً كان قد دار بينها وبين سيدة أخرى تبدو:

(مثل كتلة من السواد من قمة رأسها حتى أخمص قدميها)[2].

وكنتيجة للقصة الأولى، والحوار الأخير، يتَّضح موقف الكاتبة بجلاء فهي ترفض الحجاب صورةً من صور المرأة المسلمة. وتدعم رأيها أخيراً بحوار قصصي بين طالبة في المرحلة الإعدادية، في أوائل هذا القرن، وبين أستاذها الشيخ المعمَّم.

فإذا تأملنا ما ساقته الكاتبة، وجدنا أن مقاييس الاقتداء عندها قد ضاعت، إلى الحد الذي أظهر تناقضاً واضحاً في موقفها، وذلك مدعاةً للعجب، بل والتساؤل: ترى على أي أساس تريد أن تبني الكاتبة آراءها؟ ومن هي المرأة الرمز في تصورها؟ أهي نسيبة بنت كعب؟ أم ذات الأظفار الملونة؟

---

(١) إلفة الإدلبي: المصدر السابق. ص٤٠.

(٢) إلفة الإدلبي: المصدر السابق. ص٢٨.

فإذا كانت تريد الاقتداء بالنساء المسلمات، ومنطلقةً من التصور الإسلامي السليم، فإنَّ عليها أن تبقى ضمن حدود هذا التصور، بل أبعاده وصوره والتزاماته ونواهيه، فالشريعة الإسلامية تنهي عن التبرج. قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

والطلاءُ الأحمر يعدُّ من مظاهر التبرج وفتاةُ الآلة الكاتبة ليست مضطرة إلى الزينة إنِ اضطرها العوز والحاجة مثلاً إلى العمل وكسب قوتها بأسلوب شريف، كي تعيل نفسها إن عزَّ المعيل.

۞ ۞ ۞

المساواةُ والاستقلاليةُ في الإسلام

ولا أعتقدُ أن إحدى النسوة اللواتي اتَّخذتهنَّ الكاتبة قدوةً في بداية قصتها، قد اتخذت أيَّ مظهر من مظاهر الزينة، بل كنَّ يوصفن بأنهن لا يكاد المرء يميزهن عن الرجال، بزيِّهنَّ الخشن الذي أثبتن به فعلاً المساواة مع الرجل، تلك المساواة التي تصدح بها نساء العالم اليوم!

وقد جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(كان رسول الله ﷺ يصلِّي الفجرَ، فيشهدُ معه نساءٌ من

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

المؤمنات متلفِّعاتٌ في مُروطهنَّ، ثمَّ يرجعن إلى بيوتهنَّ، ما يعرفنهنَّ أحد)[1].

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: **(لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساءُ لمنعهنَّ من المساجد كما مُنعت نساءُ بني إسرائيل)**[2].

أما إذا كانت التزامات الإسلام ونواهيه، لا تهمُّ الكاتبة، وليست بِذاتِ وزن لديها ـ وهذا شأنها ـ ففي هذه الحال، يجب بناء النقد بعيداً عن التصور الإسلامي، ودون اتخاذ النساء المسلمات الأولَيات قدوة.

لقد وقفت الكاتبة هنا، أمام لوحة الحجاب، كما ينظر، وإحدى عينيه سليمة، والأخرى حسيرة، مما يجعل الرؤيةَ مضطربة، والحكمَ لا يؤخذ به، ولا يعوَّل عليه.

إنَّ صوتَ الكاتبة «إلفة الإدلبي» ليس إلا واحداً من أصوات كثيرة ارتفعت لتنادي بالمساواة مع الرجل، وهذا النداء سبقت إليه الشريعة الإسلامية قبل أربعة عشَر قرناً من الزمن، ولعل من أسمى مبادئها، تلك المساواة التي اشترعتها للناس، لقد جعلتهم كلَّهم سواء، إنَّما أفضلُهم أقربُهم للتقوى، وأفعَلُهم للخير قال تعالى:

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الصلاة في الثياب، باب: ١٢، حديث ٣٦٥، ج١/١٤٦. ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب٤٠ ، حديث ٤٤٥، ج٤٤٦.

(٢) متفق عليه. البخاري كتاب صفة الصلاة، باب٧٩. ج١/٢٩٦. ومسلم: كتاب الصلاة، باب: ٣٠، حديث ٤٤٥. ج١/٣٢٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

وهكذا سجَّلت مساواة الرَّجل بالمرأة، عندما أعلنت استقلاليةَ المرأة عن الرجل في حقوقها المدنية المختلفة، معلنةً عن حريتها التامة في التصرُّف بأموالها دون وصايةٍ عليها من أحد، ما دامت بالغةً رشيدة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾[2].

وعندما أعلنَ جلَّ شأنه حقَّ المرأة في الميراث: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾[3].

واستقلاليَّتها بحقِّها في اختيار زوجها إذا كانت بالغةً وعاقلة:

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[4].

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تُنكح الأيِّمُ حتى تُستأمر، ولا تُنكح البِكرُ حتى تستأذن**». قالوا: يا

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) النساء: ٣٠.

(٣) النساء: ٧.

(٤) البقرة: ٢٣٢.

رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «**أن تسكت**»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«يا رسول الله، إنَّ البكر تستحي». قال: «**رضاها صمتُها**»[2].

وعن خنساءَ بنتِ خدام الأنصارية: أنَّ أباها زوَّجها وهي ثيِّبٌ، فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فردَّ نكاحَه[3].

وعن ابن عباس: أنَّ جاريةً بكراً أتت النبي ﷺ، فذكرت أن أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيَّرها النبي ﷺ[4].

كما إنَّ النساء كنَّ يبايعن الرسول ﷺ بأنفسهنَّ، وفي ذلك دلالةٌ على استقلالية المرأة. وتأكيدٌ على أنها ليست مجرد تابع للرجل، بل هي تبايع مثلَه، ولا ريب في أنَّ مبايعة المرأة للنبي، تُظهر مساواتها مع الرجل في أوضح صورة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ

---

(١) متفق عليه. البخاري، كتاب النكاح، باب: ٤٢ حديث٣٨٤٣. ج٥ ١٩٧٤.
ومسلم: كتاب النكاح، باب: ٩، حديث ١٤١٩. ج٢/١٠٣٦.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب: ٤٣، حديث: ٤٨٤٤. ج٥ ١٩٧٤.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب: ٤٣، حديث: ٤٨٤٥. ج٥/١٩٧٤.

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، حديث: ٢٠٩٦. ج٢/٢٢٢.
وابن ماجه: كتاب النكاح، باب: ١٢، حديث: ١٨٧٥ ج١/٦٠٣.

وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

وإذا بايَعت النساءُ رسول الله ﷺ فلهنَّ الحقُّ في مبايعة الخلفاء، ثمَّ يصبح لهنَّ الحق في مجالات كثيرة، كاختيار الحاكم أو النائب في نطاق المعقول من شؤون الحكم. وأتت المساواة بين الرجل والمرأة في رحاب الثواب الإلهي طالماً كانت أهلاً للثواب، وإنَّ ذِكرَ الثواب مطلقاً يشملها، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى خصَّها بالذكر حضًا لها على فعل الخير، وإظهاراً لكيانها، وتكريماً لوجودها، فجاءَ وعدُ الله لها وعداً مباشراً واضحاً، بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[2] وتكريماً لدور المرأة في القتال والاستشهاد وتعرّضها للهجرة والأذى، فقد عمد السياق القرآني إلى تخصيص ذِكرِ الأنثى وثوابها إلى جانب الذَكَر، فقرَنَها به في آيات التبشير بحُسن الجزاء، والحضّ على الخير، والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[3].

وحين يُعدِّد القرآن صفاتِ المسلم، ويرسمُ شخصيَّته من

---

(١) الممتحنة: ١٢.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) آل عمران: ١٩٥.

قنوتٍ، وصدقٍ، وصبرٍ، وخشوعٍ، وتصدُّقٍ، وصيام، وعفَّةٍ، ودوامِ ذِكرِ الله. ، فقد اقتضت حكمةُ اللَّهِ وعدالتُه أن يَعِدَ أصحابَ هذه الصفات بالمغفرة والأجر العظيم. يستوي في ذلك الرجال والنساء، وهكذا برزت المساواة كرَّةً أخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1].

وفي مجال مساواة المرأة بالرجل قرن القرآن الكريم بينهما في مقام توجيه النصح والالتزام بجادَّة الأمور.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[2].

وقد أظهرَ السياقُ القرآنيُّ مساواةَ المرأة بالرجل في مقام القصاص وفي أحكام العقاب، كما أبرزها في مجال الثواب. قال تعالى:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[3].

---

(١) الأحزاب: ٣٥.
(٢) النور: ٣٠ ـ ٣١.
(٣) المائدة: ٣٨.

وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[1].

الحجاب تتويج لخطوات تحقيق المساواة بين الجنسين!

ثم نأتي أخيراً إلى المظهر. لقد أعلنت الشريعةُ الإسلامية المساواةَ بين المرأة والرجل بحَجبِ مواطنِ الفتنة والزينة التي تتفوق فيها الآن المرأةُ على الرجل وتَفضُله، فرسم لباسها، وجعل له شكلاً وصفاتٍ وحدوداً أبرزتها لوحةُ الحجاب التي وقفتا أمامها، فإذا بالهتافات المدوِّية والصيحات المجلجلة التي تنادي بالمساواة قد بُحّت ثمَّ تخامدت حتى خفتت وماتت، وما لبث أن بعثت من جديد لتعلن رفضَ هذه المرحلة من المساواة!

قال تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وحدة متكاملة:

إنَّ المنهج الإسلامي وَحدةٌ متكاملةٌ؛ وحدةُ عقيدةٍ، وحدةُ

---

(١) النور: ٢.

(٢) البقرة: ٨٥.

شريعةٍ، دُبِّرت وأنزلت مِن لَدُن حكيمٍ خبير عليم. وقد جمع هذا المنهجُ بين واقعيةِ الفطرة الإنسانيّة، ومثاليةِ الاستقامة على الصراطِ الذي رسمَه الله لنا.

والتعاملُ مع هذا المنهج لا يقبل رخاوةً، أو إهمالاً، أو إبطاءً، أو رفضاً لجانب منه، أو المناداةَ بما يتلاءم مع هوى كلِّ نفس، أو يوافق رغبتها. لقد أغمضت بعضُ النساء عيناً عن معنى المساواة المتَضمَّن في لوحة الحجاب، وفتَحنَ الثانية أمام لوحات المساواة الأخرى، التي منحَها إيَّاها الدينُ الحنيف، فرَضِينَ الإرث والمهر والتكريم، أُمًّا، وزوجاً، وابنةً، وأختاً:

جاء رجلٌ إلى ررسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحقُّ النَّاس بحُسن صحابتي؟ قال: «**أُمُّك**». قال: ثمَّ مَن؟ قال: «**أُمُّك**». قال: ثمَّ مَن؟ قال: «**أمُّك**» قال: ثمَّ مَن؟ قال: «**أبوك**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[(٢)].

وقال أيضاً: «**لا تكرهوا البنات فإنَّهنَّ المؤنسات الغاليات**»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأةٌ معها ابنتان لها تسألُ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتُها إيَّاها،

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الأدب، باب: ٢، حديث: ٢٦٢٦ ج٥/٢٢٢٧.
ومسلم: كتاب البر والصلة، باب: ١، حديث: ٢٥٤٨. ج٤/١٩٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب: ٦٤، حديث: ٣٨٩٥ ج٥/٧٠٩.
وابن ماجه، كتاب النكاح: ٩، باب: ٥٠، حديث: ١٩٧٧، ج١/٦٣٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: مسند الشاميين، باب حديث عقبة بن عامر الجهني.

فقسمَتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرتُه فقال: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء كُنَّ له ستراً من النار**»[1].

ولكنَّهنَّ رفضنَ المساواة الكامنة في «**الحجاب**» أو لعلَّهنَّ لم يَرينَها فيه، وتلك الرؤية الحسيرة أدَّت إلى تقييمٍ خاطىء للوحة الحجاب يقوده هوى كامنٌ في ضمائر بعضهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[2].

إنَّ الحقَّ في هذه الآية يتمثَّل في مصدره، وفي مضمونه.

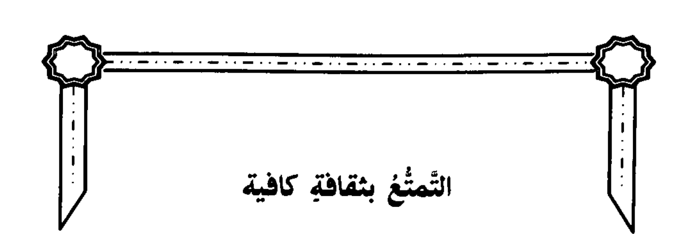
فالمصدرُ منَ الله سبحانه وتعالى الذي يملك حقَّ تنزيل الشرائع وفرضَ القوانين. أمَّا المضمون فهو حقٌّ؛ لأنه يجب الأخذُ به في كلِّ ما يعرض لنا من شؤون العقيدة والشريعة، وفي كلِّ ما يقصُّ من خبرٍ أو يحمل من توجيه.

وقد علم اللَّهُ أنَّ معاذير كثيرةً يمكن أن تقوم، وأن يُبرَّرَ بها العدول عن أيِّ حكم أو توجيه أنزله الله، هذه المعاذير ليست إلا وليدةَ أهواء الناس وهواجسهم التي قد تتسرب تحت ظروفٍ معينة أو ملابسات خاصة.

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الزكاة، باب: ٩، حديث: ١٣٥٢. ج٢ ٥١٤.
ومسلم: كتاب البر والصلة: ٤٥، باب: ٤٦، حديث: ٢٦٢٩. ج٤/٢٠٢٧.

(٢) المائدة: ٤٨.



التمتُّعُ بثقافةٍ كافية

غنيٌ عن البيان أنَّه ينبغي لمن تصدَّى للنقد أن تكون لديه ثقافةٌ كافية تؤهِّله لاحتلالِ مقعدٍ في ساحة النقد.

وأمام لوحة «**الحجاب**» يجب أن يكون الناقد مزوَّداً بثقافة إسلامية مستقاةٍ من القرآن الكريم، والسنة الشريفة.

فاللوحة هنا ترسم شخصية المرأة المسلمة. وإن الجدل القائم بين مجموعة من أنصاف وأرباع وأخماس المثقفين، اتخذت لها قسراً أمكنةً في ساحة النقد، أمرٌ يبعث على الفوضى والاضطراب أكثر ممَّا يساعد على إعطاء اللوحة ما تستحق عند تقييمها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1] جدلٌ سَفسطائيٌّ يتبلورُ بأشكالٍ غريبة، يبعثُ على الدهشة حيناً، ويثير الشفقة والرثاء حيناً آخر:

* فمِن قائلٍ بأن الحجاب ليس ذا أهمية، المهمُّ الأخلاق، والدين معاملة!

---

(١) الحج: ٨.

* ومِن قائلٍ بأنَّ الصلاة أكثرُ أهميةً منَ الحجاب، لأنَّ ذكرها وردَ كثيراً بينما لم يُذكر الحجاب إلاّ مرة واحدة أو مرتين.

* وثالث يقول: إنَّ أركان الإسلام خمسةٌ، وليس الحجاب في عدادها!

كل واحد من هؤلاء احتلَّ مقعداً وأدلى برأيه، بعد أن اقتحمَ دائرةَ الجدل كما تقتحم المصيبةُ المكان.

تذكّرني هذه الآراء بقصةٍ سمعتها وأنا طفلة. تحكي هذه القصة عن ثُلّةٍ من العميان سُئلوا أن يصفوا الفيل عن طريق اللمس. فقال الأول: إنَّه خرطوم. وقال الثاني: إنَّه أنيابٌ طويلة. وقال آخرون: لا، إنَّه أذنان كبيرتان!

وهكذا جاء وصف الفيل تبعاً للجزء الذي استطاع أن يتحسَّسه كلُّ واحدٍ من هؤلاء العميان. ولكنَّ المبصرَ وحدَه هو الذي يعرف أنَّ الفيل غير ذلك. بل هو كلُّ ذلك.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

لقد أغلق عمى البصر على هؤلاء الفتيةِ معرفةَ الفيل، كما أغلق عمى البصيرة على أصحاب الآراء المبتورةِ الإحاطةَ بشمولية الدين الإسلامي: منهجاً، وعقيدةً، وشريعة.

فمنهم من وَسَمَ الإسلام بالعنف، ومنهم من وصفه بالتزمُّت أو التخلّف، أو رآه منهجاً نظرياً غير قابل للتطبيق.

---

(١) الحج: ٤٦.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾[١].

فالإحاطةُ بالعلم قبل إفادة الآخرين برأي ما، أمرٌ قد أغفلَه أصحابُ الآراءِ السابقة، فإذا هم يتَّخذون لأنفسهم مقاعدَ في ساحة النقد دون أن يكون لهم الحقُّ في ذلك. والحقُّ يتمثَّل في الدرجة العلمية التي تمكِّنهم من الحصول على مجالسهم بجدارة.

مناقشةُ الآراء الثلاثة:

للردِّ على أصحاب الرأي الأول أقول:

لا أعتقد أنَّ هناك في المنهج الإسلامي مَن وضع الحجاب في كفَّةٍ والأخلاقَ في الكفَّةِ الأخرى ثمَّ قال للمرأة: اختاري، إمَّا هذا وإمَّا تلك، وإيَّاك والأخذَ بكليهما!

وهل هناك نصٌّ في الدستور الإسلامي يلزم المرأة بالاختيار؟!

وهل الجمع بينهما إرهاقٌ أو معاناةٌ أو استحالة؟

أمَّا أصحاب الرأيِ الثاني: فأقول لهم: إنَّ تحريمَ القتل لم يذكر في القرآن الكريم سوى مرتين، أسوةً بالحجاب، في مجال التعداد لا التشابه النوعي، فهل يعني أنَّ القتل من الأمور التي يمكن غضُّ النظر عنها؟

---

(١) يونس: ٣٩.

أعتقد أنَّ السياق القرآني في مخاطبته للناس دائماً. كما ذكرت في البدء، بـ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وبـ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾. كان يرى أن مرةً واحدة كافيةٌ لتلبية النداء. وإنَّ الإنسان العاقل لا يحتاج إلى التكرار حتى يفهم، ويدرك، ويبصر، ويطبق!

أمَّا أصحاب الرأي الثالث: فقد التبسَ عليهم الموضوع، لسوء الحظ، فظنوا أنَّ أركان الشيء هل كل شيء. إنَّ الأركان هي الأسس التي يُبنى عليها الصرح الشامخ، وبقدر سلامة الأركان ومتانتها يكون البناء قوياً وسليماً.

إنَّ الأركان الخمسة التي بُني عليه الإسلام هي:

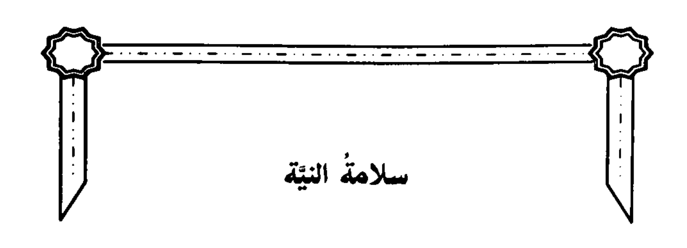
الشهادتان، الصلاة، الزكاة، الصيام، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

هذه الأركان لم يرد بينها النهي عن الزنا، أو الربا، أو السرقة، أو عقوق الوالدين، ولكن سلامة ركن الصلاة تضمنُ سلامةَ أخلاقيات المصلي وانصياعَه لتطبيق الأوامر، والبُعدَ عن النواهي ضمن دائرة الرضى الإلٰهي. وللمرةِ المسلمة لباسٌ ينبغي أن تلتزم به عند أدائها صلاتها، وهو ما يمكن تسميته بـ «لباس التقوى» والذي سنتكلم عنه فيما بعد.

قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1].



(١) العنكبوت: ٤٥.



سلامةُ النيّة

وأعني بها ألا يكون للناقد مواقفُ مسبقةٌ معلِنةُ العداء.

نشرت صحيفة «الأسرة» السعودية مقالاً تحت عنوان «قرارات قضائية ووساطات ودّية. ألفُ طالبة يخلعن حجابهن في فرنسا».

جاء في هذا المقال:

(عادت قضيةُ الحجاب الإسلامي في المدارس الفرنسية إلى الواجهة من جديد، بعد قرارٍ مناقض صدر عن مجلس الدولة ضد الطالبات المحجبات. وبالرغم من وصول القضية إلى المحاكم، يبدو أن وزارة التربية الفرنسية قررت اللجوء إلى الحوار مع الطالبات، بدل سياسة التهديد والطرد من المدارس.

مَن كان سبب الفوضى واضطراب في عمل المؤسسات التعليمية؟ البنات الصغيرات اللواتي يتمسكن بالحشمة التي يفرضها عليهنّ الدين. أم وزارة التربية الوطنية التي قررت فَصلهنّ، بحجة أن حجابهن يتناقض مع المبادىء العلمانية للدولة، ويشكل علامةً من علامات التمايز الديني.

تدرس (١٧) طالبة من المطرودات في مدرسة ثانية بمدينة

«ليل» شمالي فرنسا. أمَّا الثلاث الأخريات فإنَّهن يدرسن في إحدى مدارس «توركارت» المجاورة. وقد جاء قرار الاستئناف ليضع حداً لأملهن الأخير بمتابعة دراستهن في المدارس الحكومية. وبذلك لن يبقى أمامهن سوى الدروس الخاصة أو الحصول على الشهادة الثانوية بالمراسلة. وكلاهما صعب المنال)[1].

هذا المقال ما هو إلا واحدٌ من أمثلة كثيرة تعمُّ العالم عن الممارسات المتَّخذة ضد المحجبات في تركيا على الأخص، وأمريكا، وبعض الدول الأوروبية.

ومن المدهش فعلاً قراءةُ هذه النماذج من المقالات في عصر ارتفعت فيه شعارات برَّاقة تنادي بالحرية، وتحطيم الأغلال، والانعتاق من القيود. إنَّنا ندقُّ أبواب القرن الحادي والعشرين. عصرٍ شاع فيه إسدال النقاب على الوجوه عندما علت تحته أصوات أصحابها منادية بأنواع من الحريات بعضها مزعوم:

حرية الشعوب واستقلالها ضد الاستعمار.

حرية المساجين وحمايتهم ضد أنواع التعذيب والاضطهاد.

حرية تقرير المصير.

وبعضها مبالغ:

حرية الأطفال ضد ذويهم في حال ممارسة هؤلاء نظاماً صارماً في التربية.

---

(١) العدد: ١٦٦. تاريخ: ٢٨ ديسمبر «كانون الأول» ١٩٩٦.

وبعضها مفرط أدى إلى الانحلال:

حرية الجنس بكل أشكاله، الطبيعي، واللاطبيعي: الشذوذ الجنسي أصبح له حرية ينادي بها أصحابها ولهم نوادٍ وحفلات زفاف، وعقود زواج. وأحياء سكنية خاصة بهم «في مدينة سان فرانسيسكو بأمريكا مثلاً».

هذه الأصوات المستترة وراء نقاب من التجمل لم يَعلُ أمامها صوت واحد محتجٌ أو معارضٌ، أو لنقل معاتب.



إنهم يستهدفون الحجاب الإسلامي بعداء مفضوح

ولكن المدهش فعلاً ألا يستأهل موضوعُ العداء المعلن على الحجاب، إلى التستر والتجمل بأرقِّ أنواع الحجب، وأصبح الصوت المناهض لحجاب المرأة المسلمة يرتفع أجشَّ مدوِّياً مُفزعاً من غير أدنى جهد من أصحابه للترقيق أو التنعيم.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[1].

بينما تحظى الأزياء الأخرى بالرعاية والتأييد:

لم يذكر التاريخ البعيد أو القريب عداءً لزيٍّ ما، فقد كان لكل شعب زيُّه، ولكلِّ ديانة طقوسها ولباسها، وأذكر أنه خلال

(١) البقرة: ١٧١.

إحدى زياراتي لكندا. صدر قانون جديد يسمح لرجال الشرطة الكندية الذين هم من أصل هندي من طائفة السيخ، يسمح لهم بوضع العمامة الخاصة بديانتهم على رؤوسهم، عوضاً عن قبعة الشرطة الكندية التي هي من أصل اللباس الرسمي. وقد صدر ذاك القانون بعد اجتماعات مكثفة قامت بها السلطات الكندية.

كما لم يسجل الحاضر عِداءً لزي ما، عدا لباس المرأة المسلمة، من الأزياء الغربية التي يرتديها الناس في مختلف أنحاء العالم.

فهناك فئة من الناس تقطن وسَط كندا الـ (Mennonit) هذه الفئة ترفض استخدام أي إنجاز حضاري، فبيوتهم لا تدخلها الكهرباء، ولا التدفئة الحديثة، وينتقلون بواسطة عربات تجرها الخيول. نساؤهم يرتدين ملابس طويلة وقلنسوات خاصة، ويعتمر رجالهم قبعات عالية، ويلبسون ملابس سوداء. هذه الفئة عوملت على أنها مميزة، وتملك صفات فريدة. وكان لها حريتها المستقلة المعلنة، في الحياة واللباس والسكن بالطريقة التي ترتئي.

في عام /١٩٩٥/ كنت في زيارة لولاية كاليفورنيا الأمريكية، وقد جرت حينها حادثة طريفة في إحدى الجامعات، إذ أتى أحد الطلبة إلى الجامعة وهو عار تماماً. وطبعاً فقد حصلت بلبلة واضطراب في صفوف الطلبة، وعلى الرغم من ذلك استمر ذاك الطالب في المجيء إلى الجامعة على هذا النحو لعدة أيام. إلى أن أعلن أحد الأساتذة رفضه القيام بالتدريس بوجود هذا الطالب في حصته. ولما تدخل مجلس الجامعة، وحاول إقناع الطالب بارتداء ملابسه بالحسنى، رفض الطالب وتمسَّك بموقفه، معلناً أنه

لا يحق لأحد أن يفرضَ عليه ذلك، بمنطق عند ذاته: أنا حرٌّ أفعل ما أشاء!

وعندما حاول أحدهم إقناعه بأن العرف والتقاليد ودواعي الحشمة تلزمه بارتداء ملابسه. أجاب بقناعة مطلقة: مَن ذَا الذي يملك الحق بفرض هذه الأعراف والتقاليد؟

أمَّا من جهة الاحتشام، فأنا واثق أنني محتشم أكثر من الجميع ضمن قوانين وتقاليد صنعتها بنفسي، ولست بحاجة لمن يملي عليَّ اعتقاداتي.

وهكذا، حين استُعيضَ عن التشريع الإلٰهي بالعرف الاجتماعي، ضاعت حدود ومقاييس الحشمة.

وإنَّنا لنجد أن المسافة شاسعة بين الحجاب والعري، ولكنها ما تلبث أن تتناقض وتتقلص تبعاً لأمزجة البشر وطبائعهم وأهوائهم وتمردهم. كهذا الفتى الذي شاء أن يعلن التمرد.

إنَّ قيودَ الحشمة بين البشر، قيودٌ نسبية، لها قوامٌ مطاطيٌّ مرن، أكثر مما يخطر ببال المرء فالعرف يتغير بتغيُّر الأزمنة، والأمكنة، والأعمار. ودرجات الثقافة، والمستويات المادية والتعليمية والتربوية، وعوامل الجو.

فالعرف في حي راقٍ غيره في حارة شعبية.

والعرف في منطقة معتدلة يختلف عن سواه في منطقة حارة.

ومقاييس الحشمة لدى صبية هيفاء القوام ليست ذاتها عند سيدة بدنية، أو عجوز مسنة.

والعرف على شاطىء البحر مغاير للعرف في مبنى حكومي، أو أمام قبر راحل.

وحسبنا ما أوردناه من أمثلة لم تكن على سبيل الحصر.

وهكذا نجد أن الهوى لا ضابط له ولا مقياس، وإنَّما هو شهوة النفس المتقلِّبة، ونزوتها المضطربة، ورغباتها، ومخاوفها، ومطامعها التي لا تقف عند حد ولا يدعمها حق، ولا توزن بميزان.

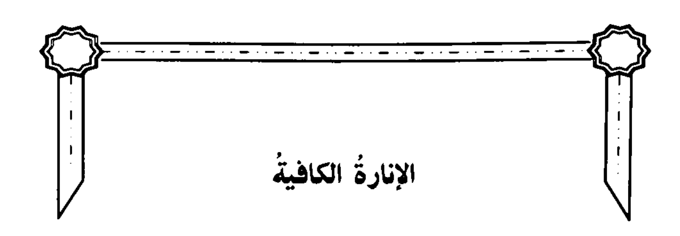
إنَّه الضلال الذي لا يُرجى معه الهدى، والشرودُ الذي لا أملَ للعودة عنه.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].



---

(١) الروم: ٢٩.



الإنارةُ الكافيةُ

هل في الحجاب تمييز بين الحرائر والإماء؟

نشرت صحيفة «الكفاح العربي» مقالاً بعنوان: «كتاب الحجاب يحرك طيور الظلام»، هذا المقال جاء تلخيصاً لكتاب «الحجاب» لمؤلفه المفكر سعيد العشماوي.

(في كتاب «الحجاب» يعتبر سعيد العشماوي أن الحجاب ليس فريضة إسلامية، إنَّما هو من التقاليد العربية العريقة في مجتمعاتنا، موضحاً هذا الأمر بالكثير من التفاسير، مستنداً إلى آيات الحجاب التي ذكرها القرآن الكريم.

يقول المستشار العشماوي في كتابه:

(إنَّ الآية التي وردت في حجاب النساء تتعلق بزوجات النبي ﷺ وحدَهن، وتعني وضع ساتر بينهن وبين المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾(١).

(١) الأحزاب: ٥٣.

وبالنسبة لآية الخمار: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1] فإن سبب نزول هذه الآية. كما يقول العشماوي. أن النساء قديماً كنَّ يغطين رؤوسهن بالأخمرة. ويَسدلنها من وراء الظهر، فيبقى النحر ـ أعلى الصدر والعنق ـ ولا ستر لهما. فأمرت الآية بالإسدال على الجيوب لستر الصدر، وعلة الحكم في الآية تعديل العرف الذي كان قائماً، دون أن تقصد وضع زيٍّ بعينه.

أما آية الجلباب وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[2].

فإنَّ سبب نزول هذه الآية أنَّ العربيَّات كنَّ يتبذَّلن ويكشفنَّ وجوههنَّ، كما تفعل الإماء اللواتي كن يخرجن إلى الخَلاء في الصحراء، فكان بعض الفجَّار يتعرض للمؤمنات على مظنَّةِ أنهنَّ من الجواري، وقد شكونَ ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية لتضع فارقاً وتمييزاً بين الحرائر والإماء، حتى يُعرفنَ فلا يُؤذَين بالقول من فاجر يتتبع الجواري. وهذه هي علة الحكم.

وإذا كانت القاعدة في علم أصول الفقه، أن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، فإذا وُجدت العلة وُجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم، وإنَّ علة التمييز بين الجواري والحرائر انتفت في العصر الحالي، وبالتالي فلا يكون الحكم واجب التطبيق)[3].

---

(١) النور: ٣١.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

(٣) صحيفة: «الكفاح العربي»، العدد: ٩٣٥، الصادر في: تموز ١٩٩٦.

إنَّ النقاد من أمثال هذا المفكر الإسلامي المستشار العشماوي، لا تعوزهم الثقافة الإسلامية الكافية، ولا الاستراتيجية الصحيحة، أو النية السليمة، أو الرؤية الواضحة، ولكنهم عرَّضوا جانباً من اللوحة للضوء، بينما تركوا جانباً آخر منها غارقاً في ظلال النسيان والإهمال.

☼ ☼ ☼

لقد أحالوا اللوحة إلى مستودع الأشياء القديمة!

ليس العشماوي وحده من نادى بإسدال الستار على هذه اللوحة، واستبعادها من «ألبوم» المرأة المسلمة، صفاتها، لباسها... إذ هناك غيره كثيرون. فللدكتور المهندس محمد شحرور آراؤه في مؤلَّفه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة»[1].

والتي تتفق في النتيجة مع سابقه، وإن اختلفت في طريقة الشرح وأسلوب العرض لقد خاض هؤلاء المفسِّرون والمفكرون، رحلةً طويلة في خضمِّ اللغة العربية وغاصوا في أعماقها باحثين عن أدق معاني الآيات القرآنية بين الكلمات والألفاظ، لبيان مدلولاتها ومفرداتها، ومراميها البعيدة والقريبة، وما بينها، فأتوا بتفاسير ومعان شتى لألفاظ:

الخمار ـ الجلباب ـ الجيب، وغيرها:

وما إن عادوا إلى السطح، حتى أفاضوا بين أيادي الناس

---

(١) الطبعة الثانية، دار الأهالي، دمشق: ١٩٩٠.

درراً من أحكام وتفاسير ثم إنهم لم يلبثوا أن توغَّلوا في دروبِ التاريخ البعيد ومسالكه، وأمعنوا باحثين متقصِّين عن الأحاديث النبوية والقصص التاريخية، التي رواها المؤرخون والمحدِّثون، وفي نهاية المطاف أبرزوا من جعبتهم قراراً يقضي بإحالة «**لوحة الحجاب**» إلى مستودع الأشياء القديمة، حتى يلفَّها غبار النسيان، وتطويها عتمة السنين.

من الغريب فعلاً أن هذه الجهود الكثيفة الطويلة الشاقة، ما كانت إلا لتسليط الضوء على جانب واحد من اللوحة، زاوية واحدة عَنَت للجميع «اللِّباس للِّباس» وأغفل الجميع تسليط الضوء على جانب آخر، على زاوية «اللباس والمضمون».

فمن المعلوم أن النقاد الفنيين، عند نقدهم للَّوحات العالمية الشهيرة يأخذون بعين الاعتبار نفسيَّة الفنان، وشخصيته، وظروف معيشته. فمثلاً، وأمام أشهر اللوحات العالمية على الإطلاق، وأثمنها «الجوكندا»، لم يدرس النقاد والعلماء حياة مبدعها «ليوناردو دافنشي» فقط، بل عمدوا إلى تتبع الكوامن الخفية لسحر اللوحة، والسِّر الكامن وراء الابتسامة الغامضة لصاحبتها، والنظرة الوديعة، والقسمات المتناسقة. فأتى بعضهم برأي أنَّها يمكن أن تكون حاملاً، والمرأة، حينما يضم كيانها مخلوقاً هو قطعةٌ من ذاتها، تكتسي قسماتها بطابع من السلام والوداعة والأمن والحنان، وتفيض نظراتها بحلم اللقاء القريب، والأمل الباسم.



بين مَظهر الإنسان وجوهره علاقةٌ حميمةٌ

وهكذا، ومن هذه الدراسة على سبيل المثال لا الحصر، نجد أن العلاقة بين مظهر الإنسان وسريرته علاقة حميمة، يعرفها حتى من يملك الحد الأدنى من الثقافة في علم النفس، إذ نجد الناس يميلون في مقام الحداد إلى ارتداء اللون الأسود، وعند الفرح يحلو لهم ارتداء الألوان الزاهية.

فتزهو العروس في ليلتها الأولى بثوبها الملائكي الأبيض، دليل الطهر والبراءة. وعند الشعور بالكآبة يهمل المرء هندامه، وقد يميل إلى ارتداء الألوان القاتمة.

وتفرض بعض المطاعم الفخمة الراقية مثل (Maxim) ارتداءَ بِزَّةٍ رسمية وربطة عنق، حفاظاً على مستوى اجتماعي لائق.

وفي معظم جامعات العالم يرتدي الخريجون ملابس رسمية خاصة تميِّز الدرجةَ العلمية التي حصل عليها الطالب.

ويُفرض على هيئة المحكمة في دور القضاء لباسٌ خاص يوحي بالصرامة، ويفرض حالةً من الانضباط، تساعد على هيمنة أجواء المساواة والعدل المنشود.

كما يوحي لباس الشرطة في كلِّ دول العالم، بمجرد رؤية صاحبه، بسيادة النظام والأمان، وتوفُّر الحماية والسلامة.

ويفرض لباسُ الجنود الخشنُ المتقشِّفُ ظلالاً من القسوة والرهبة التي يلوح من ورائها نور الحرية والاستقرار.

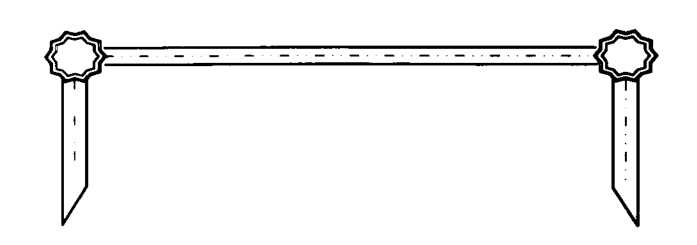


الفصل الثاني

لباسُ التَّقوى

- لباسُ التقوى ضرورة
- الحكم على اللوحة. «رأي الناقد».
- تعديل تسمية الحجاب.





وبعد هذا كلّه نتساءل:

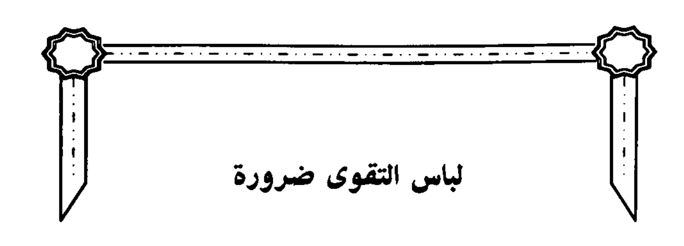
أما للتقوى مِن لباس؟

أين هو لباس التقوى؟

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾[1].



(١) الأعراف: ٢٦.



لباس التقوى ضرورة

قد يتغيَّرُ الشَّكلُ، ولكن الحشمة تبقى أساساً في اللباس

إنَّ اقترانَ اللباس بمشاعر التقوى، منذ هبوط آدمَ وزوجِهِ عليهما السَّلام، إلى الأرض وحتى الساعة، قد يَحُلُّ معضلةً تاريخية لدى الباحثين، ففي ظلال التقوى لا بدَّ أن تحافظ المرأة على لباس محتشم، قد يتفاوتُ مِن ديانة إلى أخرى، ومن زمان لآخر، ومن مكانَ إلى مكان.

فالمرأةُ اليهوديَّة لها لباسها المحتشم، والمرأة المسيحية لها زيُّها المتميز، زيُّ الراهبة، وهذا ما يثبتُ أنَّ بين اللباس والتقوى علاقةً متينة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة وجودَ الحجاب لدى الآشوريين القدماء، فقد كان ملوكهم من أوائل الحكام الذين طوَّروا قوانين الحجاب، من القرن الثالث عشَر وحتى القرن الحادي عشَر قبل الميلاد.

وفي بداية القرن السابع الميلادي، وخلال الحكم البيزنطي،

كانت النساء المحترمات يعشن منفصلاتٍ ويَظهرنَ متحجِّبات. وكان شكلُ الحجاب، وأقسامُ الجسم التي يغطيها، يعتمدان على الوضع الاجتماعي للنساء.

البنات ـ المتزوِّجات ـ المحظيَّات ـ المومسات.

أما في مصر القديمة، فقد كانت المرأة حرَّةً في الظهور كما تريد، ولم تكن تضع الخمارَ على وجهها.

وقد حوت بعض الوثائق الآشورية القديمة رسوماً تظهر فيها النساء محجَّبات، كما هو موضَّح في الزخرفة الموجودة على كفن «بيتروسيس»، وهو مُنجِّمٌ عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

ووفقاً للديانة الزرادشتية، كان الأشخاص ذوي «المناصب العالية» في الدولة الفارسية الساسانية يُفصلون عن عامة الشعب بستارة، وليس ذلك الفصلُ إلا مظهراً من مظاهر الحجاب.

ويرى «ويلهاوزن» في مؤلَّفه المتعلِّق بعادة الحجاب بين النسوة العربيات، أن عادةَ ارتداء الحجاب عند النساء العرب، نابعةٌ من رغبتهن في تحاشي العين الشريرة. إلا أنَّ ذلك كان قبل اكتشاف مجموعة قوانين الآشوريين القديمة.

وقد ذكر بعض المؤرخين، أنَّ عادة ارتداء الحجاب، وبخاصَّة في شبه الجزيرة العربية المتاخمة للصحراء، قد يكون للحماية من العواصف، واتقاءً للرمال والغبار وتفيد بعض كتب التاريخ، أنَّ نبيلات مكة المكرمة كنَّ يرتدين الحجاب قبل ظهور الإسلام. كما أنَّ بعض النساء كنَّ يغطين رؤوسهنَّ بشعر مستعار، بديلاً عن الحجاب.

ويذكر الحاخام «مناحيم برايبر»، البروفيسور في الأدب الإنجيلي في جامعة القديس يوسف، في بحثه عن «النساء اليهوديات في الأدب الحاخامي»، أنَّه كان من عادة النساء اليهوديات أن يظهرنَ مرتدياتٍ غطاءً للرأس، والذي كان يستر، أحياناً، الوجه بكامله، عدا عين واحدة.

وورد في مقالة كتبها أليانو أ. دوماتو:

(من الواضح أنَّ النساء المسيحيات في نجران، إلى الجنوب الغربيِّ من شبه الجزيرة العربية، كنَّ يرتدينَ الحجاب، ولكنَّ العامَّةَ منَ النساء كان عليهنَّ عدمُ وضع الحجاب، أي أنَّ الحجاب كان للمرأة النبيلة فقط. وكان الظلام أحياناً يُغني عن الحجاب أو يساعد عليه).

وفي مدينة تدمر الأثرية، أظهرت الزخارف والنقوش على جدران المعابد رسوماً لنساء محجبات، فقد كان محظوراً على المرأة دخولُ المعبد دون حجاب.



قد أنزلنا عليكم لباساً

بعد هذه الرحلة السَّريعة الموجزة عن لباس التقوى، ورؤيةِ مختلف مظاهره وأشكاله ودوافعه، نجد أنَّه لم يأخذ شكلاً واضحاً ثابتاً.

إنَّ لباس التقوى وسترَ الجسد، فطرةٌ خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعةٌ أنزلها للبشر، وأقدَرَهُم على تنفيذها، بما سخَّر لهم في الأرض من مُقدَّرات وأرزاق.

إنَّ كلمة: «وأنزلنا»، في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾، تعني: شرّعنا لكم في التنزيل.

و«اللباسُ» اسمٌ يُطلق على ما يواري السَوْأةَ، وهو اللباس الداخلي.

أمَّا «الرِّياش» فتطلق على ما يستُر الجسمَ كلَّه، ويُتجمَّل به، وهو ظاهر الثياب.

وهذا الامتنان بنعمة اللباس والزينة دليلٌ على الإباحة، وهو مطابقٌ لفطرة الإنسان في حبِّ الزينة، دون المبالغة والتباهي، والمظهر الحسن.

والله سبحانه يُذكِّر بني آدمَ بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صوناً لإنسانيتهم عن الانحدار، وتمكينهم منه بما يسَّرَ لهم من الوسائل.

روى الإمام أحمدُ عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول عن الكسوة: «**الحمد لله الذي رزقني منَ الرِّياش ما أتجمَّلُ به في النَّاس، وأواري به عورتي**»[1].



ثلاث بشارات

وهكذا نجد أنَّنا إذا امتطينا صهوةَ بساطٍ سحريٍّ طائر، محطَّتُه الأولى نداءُ الله سبحانه إلى بني آدم. هذا النداءُ الجليل

(١) أخرجه أحمد في المسند، مسند العَشرة المبشَّرين بالجنة. باب مسند علي بن أبي طالب.

بإنزال لباس التقوى، ومررنا كالبرق الخاطف فوق أحقاب التاريخ والأزمان والأديان والأهواء، كهذه الرحلة المقتضبة التي قُمنا بها، لحطَّ هذا البساط الرّحالَ بنا عند المحطة الأخيرة، التي يعلنها النبيُّ الأميُّ وخاتمُ المرسَلين محمدُ بنُ عبدالله ﷺ.

هذا الإعلانُ الذي كان في آخرِ ما نزلَ من القرآن الكريم على محمد ﷺ:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

لقد نزلت هذه الآية في حَجَّة الوداع، فكانت إيذاناً بدُنوِّ أجَلِ الرسول الأعظم ﷺ. وهي كلماتٌ هائلة، تحمل في ثناياها حقائقَ كبيرةً، وتوجيهات عميقة، ومقتضياتِ وإلزاماتِ، فقد تحققت بهذه الآية ثلاثُ بُشرَياتٍ. مكثَ بعدها النبيُّ ﷺ إحدى وثمانين ليلةً، ثم قُبضَ وتوفَّاه الله.

ولما سمعَ يهوديٌّ عمرَ رضي الله عنه يقرأ هذه الآية، قال اليهوديُّ: «لو نزلت هذه الآيةُ علينا، نحن معشرَ اليهود، لاتَّخذنا يوم نزولها عيداً.

فقال عمر: فإنَّها نزلت في يوم جمعة، ويومَ عرَفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد»[2]. وفي المحطة الأخيرة، وبعد هذه الجولة الخاطفةِ بين كتب التاريخ، يستعرضُ الإنسانُ موكبَ الإيمان، وموكبَ الرسالات، ومركبَ الرسل، منذ فجر البشريةِ

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور. عند تفسير الآية. ج٢/٢٨٣.

وهبوطِ آدمَ وزوجهِ إلى الأرض، حتى الرسالةِ الأخيرة التي نزلت على محمَّد ﷺ، فكانت رسالةً تخاطب فطرةَ الإنسان التي لا تتبدل ولا تتغير.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

إنَّ هذه الرسالة شريعةٌ تتناول حياةَ الإنسان من جميع أطرافها، وتشملُ أوجُهَ نشاطاتها، وتضعُ الأحكامَ التفصيليةَ والقوانين الجزئية التي لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّل بتغيُّر الزمان والمكان.

لقد أعلنت هذه الآية إكمالَ العقيدة، وإتمامَ الشريعة معاً. وهذا هو الدِّين، فلم يَعُد للمؤمن أن يتصوَّر أنَّ ثمة نقصاً في الدين يتوجب إكماله، أو قصوراً يستدعي الإضافة، ولا محليةً أو زمانيةً تستدعي التطوير أو التحوير. وإلا فهو ليس بمؤمن، ولي براضٍ بما ارتضاهُ اللّه للمؤمنين، وهذا هو المعنى الذي وردت به الآيةُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وهذه هي البشارة الأولى. ثمَّ يقف المؤمن أمام البشارة الثانية: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

إنَّ إتمامَ نعمةِ الله على المؤمنين بإكمالِ هذا الدِّين، يشكِّلُ نعمةً هائلةً عظيمة، تُمثِّل مولدَ الإنسان في الحقيقة، كما تمثِّل نشأته واكتماله.

فالإنسانُ لا وجودَ له قبل أن يتحرَّر من عبادة العباد، إلى

---

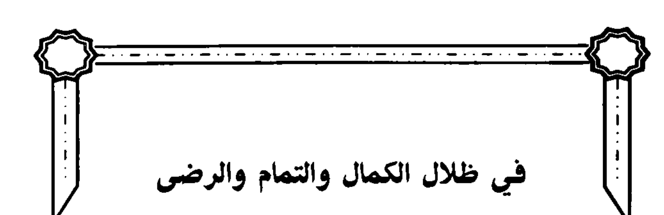
(١) الروم: ٣٠.

عبادة ربِّ العباد وحدَه؛ وقبل أن ينالَ المساواةَ الحقيقية، بأن تكون شريعتُه من صُنع الله، وبسلطانه، لا مِن صنع غيره، ولا بسلطانٍ سواه؛ وقبل أن يعلنَ التحرُّرَ والاستعلاءَ أمامَ كلِّ مَن عداه؛ فإلى الله يتَّجه بالعبادة، ومنَ الله يتلقَّى المنهجَ والشريعةَ والنظام.

لقد أخذَ الإسلامُ بيدَ الإنسان التائهِ في هجير الصحراء، صحراء الجاهلية التي كان يتخبَّط فيها، وسرابِ الاعتقادات حول ربوبيَّة الأصنام، والملائكةِ، والجنِّ، والأسلافِ، والكواكبِ، وسائرِ الأساطير السَّاذجة، والخرافاتِ السخيفة؛ وقادَه إلى الينبوع الثَّر. . . إلى المَعين العذبِ من الإيمان بإلهٍ واحد، عادلٍ، كاملٍ، قريبٍ، مجيبٍ، لا واسطةَ بينه وبين أحد من العباد، سواءُ أكانَ الوسيط كاهناً أم رجلاً من رجال الدين، فالعلاقة بين الإنسان وخالقه بسيطةٌ واضحةٌ وبمتناول الجميع، في كلِّ الأماكن، وكلِّ الأوقات.

لقد أنقذهم منَ الضياع في متاهات الجاهلية، في تقاليدها، وعاداتها وأخلاقها. أنقذهم من تعاسةِ البنت الموؤدة، والمرأة الموروثة، والخمر، والميسر والربا، والعلاقات الجنسية العشوائية، والتبرُّج، واحتقار المرأة وامتهانها.

وأخيراً. يقف المؤمن أمام الحقيقة الثالثة والبشارة الأخيرة: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، ليَنعمَ بهذا الظلِّ الوارف الذي أظلَّه اللَّهُ به، بهذا الملاذ الآمن الذي يكتنفُه، وأيُّ ملاذ بعد هذا الذي يفتحُه اللَّهُ لنا؟! وهو رضى اللَّهِ حتى إنَّه لَيَختارُ لَنا منهجَ الحياة كلها.



بحثاً عن لباس التقوى

غير أنَّ الوصول إلى هذا المرفأ يتطلَّبُ جهوداً وتكاليفَ، ويستدعي بذلَ الوُسع في شكر النِّعمة ومعرفتها، وإدراكِ الواجب بما يُستطاع منه.

إنَّ ارتضاء اللّٰهِ الإسلامَ ديناً لهذه الأمة، ليقتضي منها، ابتداءً، إدراكَ قيمةِ هذا الاختبار، ثم الحرصَ على الاستقامة على هذا الدين، جُهدَ ما في الطاقة مِن وُسعٍ واقتدار فالسِّياقُ القرآنيُّ أشار في المحطة الأولى إلى أنَّ للتقوى لباساً، غير أنَّه لم يحدِّد، أو يدلَّ على شكلِ هذا اللباس ومواصفاته. ولكن إذا انطلقنا في رحلةِ بحثٍ واستكشافٍ وتقصٍ عن هذه الصفات والسِّمات، وفي ظلال الكمال والتمام والرضى، فلا بدَّ لنا منَ العثور على صفاتِ لباس التقوى المنشود.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1].

---

(١) النور: ٣١.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1].

إن آية «الإبداء» أفادت طلبَ السترِ الأعلى الأعضاء إلا الوجه والكفين.

أما آية «الإدناء» فقد أفادت طلب الستر، الذي يحيط بالثياب، وأن يَعمَّ الرأسَ وما والاه من الوجه، وهو الجبين، وأن ينضمَّ على البدن ليَحصلَ به تمييزُ الحرائر، بالمبالغة في التستُّر والاحتشام.

وهكذا فإن الشريعة الإسلامية لم تفرض طرازاً مُعيَّناً.

فأي طراز يحقق الستر بشروطه الشرعية. ويكونُ مناسباً للمناخ السائد من ناحية أخرى.

ومعيناً على يُسر الحركة من ناحية ثالثة، فهو مقبول شرعاً.

ولكنها فرضت شروطاً ينبغي توفُّرها في كلِّ زيٍّ من الأزياء التي يتعارف عليها الناس، وتختلفُ باختلاف البلدان والأمصار، ذلك أن الشريعة تُقرُّ العرفَ، ما لم يصطدم بحكم من أحكامها، أو يتعدَّى حدودها وآدابها.

والإسلام لم يغير أعراف الجاهلية في اللباس، ولكنه أدخل عليها التعديل الضروري فحسب. وقد كانت المرأة العربية قبل

---

(١) الأحزاب: ٥٩.

الإسلام تلبس ثياباً، لكل منها طرازٌ متميز عن سواه، فالخِمارُ وهو غطاء الرأس، والدرع وهو غطاء البدن، والجلباب وهو ما كان فوق الدرع والخمار معاً، والنقاب أو البرقع وهو ما يغطي وجه المرأة ويُبدي مِحجرَ العينين.

ولما جاء الإسلام في المحطة الأخيرة، فرض آداباً لهذه الثياب، فأوصى المرأة بأمور ينبغي أن تُراعى عندما تلبس تلك الثياب، حتى يكتملَ سترُ بدنها.

فإذا لبست الخمار مثلاً، فعليها أن تُسدله حتى تستر بطرفه العنق وفتحة القميص، قال تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1].

وأوصى المرأةَ أن تلتزم بالحجاب، فتدنيه عليها عند الخروج لتتميَّز عن الإماء: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[2].

كما أوصى المرأة التي ألفت النقاب أن تخلعه في أوقات معينة، في الصلاة ليكتمل سجودُ وجهها لله عز وجل، بملامسة الجبهة والأنف للأرض؛ ووقت الإحرام، انخلاعاً عن المألوف للترفُّه، واتجاها للتشعُّث.

هذه هي بعض التوصيات التي تعتبر شروطاً في لباس المرأة المسلمة، عندما تلقى الرجال الأجانب.

---

(١) النور: ٣١.
(٢) الأحزاب: ٥٩.

ليس صحيحاً أيضاً؛ لأن الإسلام بكل تعاليمه جاء لكل زمان ومكان ليس لزمن بعينه أو لوقت محدد فاللباس الإسلامي إذا توافرت فيه صفتان وهما: ألا يصف، وألا يشف، أي: ألا يصف ما تحته وذلك بتجسيده للجسم أو بتحديده لصفاته بل أن يكون واسعاً فضفاضاً، وألا يكون شفافاً يرى ما تحته من اللباس الداخلي أو يرى بعض الجسم فهو لباس مقبول شرعاً، وتقره الشريعة السمحة. فلم يحدد الإسلام طرازاً معيناً للباس المرأة ولا زيّاً معيّناً بل كل لباس تتوافر فيه الصفات المذكورة فهو مقبول شرعاً، وإن اختلفت أشكاله وألوانه من بلد إلى بلد حسب العرف والعادة. وكل لباس لا يتعارض مما قرره الإسلام لهذا اللباس هو لباس إسلامي مقبول دون اعتراض من أحد أما إذا خالف هذا اللباس المواصفات المطلوبة شرعاً فهو لباس مرفوض وغير مقبول.

إن القرآن الكريم لا يسرد القصص لمجرد السرد أو التوثيق، فسمة الاختصار فيه واضحة، ومعاني التوجيه والإرشاد مبثوثة في كل كلمة وكل آية.

والذكر في الآية السابقة هو القرآن، لنتذكر به على الدوام لأنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[1].

ولأنه لم يعط نبي من الأنبياء قبل محمد ﷺ مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وفيه

---

(١) فصلت: ٤٢.

الحكم الفصل بين الناس، وكل ما هو صلاح للبشر في الدين والدنيا والآخرة، وجميع مكارم الأخلاق، ومنهاج الحياة الكريمة قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[1].

فالقصص في القرآن فيها عبرة وحكمة وعظة، لم تذكر عبثاً دون فائدة تُرجى من ذكرها وإن حرص القرآن على مخاطبة الناس وسرد قصص من التاريخ لجماعة من ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إن هو إلا حض على استنباط الحكمة والهدف الكامن وراء الحديث والقصة الواردة في القرآن الكريم.

فالاقتداء بخطاب «نساء المؤمنين» في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[2].

لا يمكن أن يختصَّ بنساء المؤمنين في ذلك العهد حصراً، إلا إذا شئنا أن نظنَّ أنَّ عهدنا الحالي خالٍ من المؤمنين، وعليه فإن النساءَ المنتسباتِ إلى رجال لا تشملهم صفةُ الإيمان، لا يسري عليهنَّ حكمُ نساءِ الفئة الأولى.

وأعتقد أنَّ هذه نظرةٌ تشاؤمية للغاية، لا تتفق مع قول الرسول ﷺ: **«لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهرينَ على الحقِّ، لا يضرُّهم مَن خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك»**[3].

☆ ☆ ☆

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة. باب: **٥٣**، حديث: **٢٢٢٩**. ج٤/٥٠٤.

وفي لباس التقوى تمكين للمرأة من أداء الصلاة في كل وقت وكل مكان

وإذا عدنا إلى لباس التقوى، محدَّداً بآيتي الإبداء والإدناء، نجدُ أن تطبيق هذه القاعدة في اللباس، هو إعلانٌ منَّا عن قبولنا بالعيش في كنف الرضى الإلٰهي الذي أقره الله لهذه الأمة، وهو تحقيقٌ عمليٌ للمرأة لإقامة الصلاة في أوقاتها، حيث يُمكِّنها لباسها من تأديةِ فروض التقوى، والصلاة عمادُها، وينبغي ألا يفوتَنا قولُ الرسول ﷺ: «**بين الرجلِ والكفرِ تركُ الصلاة**»[1].

إنَّ لباس المرأة المسلمة، تطبيقاً لهذه القاعدة، يُمكِّن المرأةَ منَ الصلاة حيثما حلَّت وأينما كانت: في الحقل، في السوق، في السفر.

والصلاةُ وقوفٌ بين يدي الخالق، واستحضار لهيبته، ومِن شعورِ الجلال والهيبة ينبثقُ شعورُ الحياء، وينبثق عن هذا بدوره شعورٌ باستقباح التَّعري، وإرادةٌ للإعراض عنه.

عن محمد بن زيد بن قنفذ، عن أمِّه، أنها سألت أمَّ سلمَة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: «**ماذا تصلِّي فيه المرأة منَ الثياب؟**».

فقالت: «**تصلِّي في الخمار والدِّرع السابغ إذا غيَّب ظهورَ قدميها**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان. باب: ٣٥، حديث: ٨٢. ج١/٨٨.
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة. حديث: ٦٣٩. ج١/١٧٣.

وعن أمِّ عطيةَ قالت: «أُمرنا أن نَخرجَ الحِيَّضُ يومَ العيدين، وذواتُ الخدور، فيشهدنَ جماعةَ المسلمين ودعوتَهم، ويعتزلُ الحيَّضُ عن مُصلاهنَّ. قالت امرأة: يا رسول الله ﷺ، إحدانا ليس لها جلباب؟. قال: «**لِتُلبِسهَا صاحبتها مِن جلبابها**»[1].

وإذا كان هنالك لباس لأهل التقوى، فإنَّ هنالك أيضاً لباساً لمن هم ليسوا من أهل التقوى. فقد قال الرسول ﷺ: «**نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مائلاتٌ مميلاتٌ رؤوسهنَّ كأسنمةَ البُختِ، لا يدخلنَ الجنةَ ولا يَجِدنَ ريحها**»[2].

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنها دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رقاق، فأعرضَ عنها رسولُ الله ﷺ، وقال لها: «**يا أسماء، إنَّ المرأةَ إذا بلغت المحيضَ لم يَصلُح أن يُرى منها إلا هذا وهذا**». وأشار إلى وجهه وكفيه[3].

إن الاستناد إلى أحاديث الرسول ﷺ شطرُ أساسي في الدستور الإسلامي، على عكس ما أفاد العشماوي:

أما عن حديث الرسول ﷺ: «**لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت، ـ أي بلغت ـ ، أن تُظهر إلا وجهها وكفيها**» فإن العشماوي يقول: إنه من أحاديث الآحاد وهي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة ٨. أبواب الصلاة في الثياب: ١، حديث: ٣٤٤. ج١/١٣٩.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب اللباس، باب: ٣٤، حديث: ٢١٢٨. ج٣/١٦٨٠.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب اللباس، حديث: ٤١٤٠. ج٤/٦٢.

أحاديث للاستئناس والاسترشاد، لكنها لا تنشىء حكماً شرعياً ولا تلغيه، وعلى هذا فإنَّ الحجاب بالمفهوم الدارج حالياً، شعارٌ أساسي، وليس فرضاً دينياً ورد على سبيل الجزم واليقين والدوام[1].

مكانة السنة في التشريع:

وإذا أردنا أن نناقش رأي العشماوي هذا، وغيره مِمَّن ينظرون إلى السنة كنظرته، فإنَّ علينا أن نقوم بمسح لمدلولات كلمة «السُّنة» في اللغة وفي الشرع، وقد وجدتُ بنتيجة البحث ما يلي:

السُّنة تعني لغة «الطريقة»:

ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾[2]، وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾[3].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[4].

وهكذا نجد أن سنة الله، في إطارها العام، هي الطريقة.

أما شرعاً:

فتطلق السُّنةُ على ما كان من العبادات نافلةً منقولة عن النبي ﷺ.

---

(١) «الكفاح العربي: العدد: ٩٣٥، تموز ١٩٩٦.

(٢) الإسراء: ٧٧.

(٣) الأحزاب: ٣٨.

(٤) النساء: ٢٦.

وقد تطلق على ما صدر عن الرسول ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف خَلقي أو خُلقي.

وحين الحديث عن الأدلة الشرعية، تُطلق السُّنة على فعل الرسول ﷺ وعلى قوله وعلى إقراره، الذي يُنشِىءُ حكماً شرعياً.

والآن. ما منزلة السنَّة في القرآن الكريم. بوصفها مصدراً للتشريع؟

إنَّ كون السنَّة مصدراً أساسياً للتشريع قضيةٌ تفرضها مسألتان هامتان:

المسألة الأولى:

إنَّ الإقرار بنبوَّة الرسول محمد ﷺ ورسالته، يستلزم الإقرار بمرجعية سُنته، فهو الذي بلَّغ الأمانة «القرآن الكريم» الذي هو كلام الله وشريعته، دون أن يكون في هذا التبليغ قابليةُ الخطأ والنسيان والكذب. فقد اقتضى حفظُ رسالةِ الله أن يكون الرسول معصوماً من ذلك كلِّه.

المسألة الثانية:

إنَّ القرآن يعلن أن الرَّسول ﷺ لم يكن يتكلَّم من منطلق ذاتي، بل بوحي من الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾[2].

(١) النجم: ٣ ـ ٤.
(٢) الأنبياء: ٤٥.

وإنَّ لفظة الوحي في الآيتين تفيد أمرين:

١ ـ الوحي المباشر: وهو القرآن الكريم.

٢ ـ مضامين القول ومعانيه: فالله سبحانه أوحى له بها، وقد عبَّر الرسولُ ﷺ عن هذا الوحي بلفظ من عنده، أو بفعل أو تقرير منه.

ونجد التأكيد على ذلك في الآيات التالية:

- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].
- ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].
- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[4].
- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[5].

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[6].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[7].

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) النور: ٦٣.

(٤) الأحزاب: ٣٦.

(٥) النساء: ٦٥.

(٦) النساء: ٥٩.

(٧) آل عمران: ٣١.

عناصر الترابط بين القرآن الكريم والسُنَّة النبوية

والآن ما هي عناصر الترابط بين القرآن والسنة؟

١ ـ إنَّ السُنَّةَ تُبيِّنُ مُحتَمَل القرآن الكريم، فعندما يكون معنى الخطاب القرآني قابلاً لأمرين، وتأتي السنةُ بتعيين أحدهما، فإننا نرجع إلى السنة، ونترك مقتضى ظاهر الكتاب.

٢ ـ السنة بالنسبة للقرآن تبيانٌ وشرحٌ. انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

فالقرآنُ يحمل سمةَ الاختصار، وهو عبارةٌ عن محاورَ أساسيةٍ، وخطوطٍ عريضة، والسنةُ الشريفةُ تنطلق من هذه المحاور والخطوط، لترسم خطوطاً جزئية تفصيلية، توضِّحها وتفسِّرها.

لقد أمرَ القرآنُ بإقامة الصلاةِ مثلاً، فكيف نقيمها؟

إنَّ الرسول ﷺ يبيِّنُ بقوله وفعله: «**صَلُّوا كما رأيتُموني أصلي**»[2].

ويسري ذلك على بقية الأحكام، كالحج، والزكاة، . . . ، والحجاب الذي هو موضوع بحثنا.

ثـمَّ إنَّ القرآن وردت فيه عموميات، فجاءت السنة فخصصت هذا العامَ:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[3].

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب: ١٨، حديث: ٦٠٥. ج١/٢٢٦.

(٣) النساء: ١١.

هذه الآية تأمر أن يرث الأبناءُ الآباءَ، ولكنَّ السنة خصَّصت ذلك، فأخبرتنا أن القاتل لا يرث.

أمَّا آية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[1]، ففيها حُكمٌ مطلق في كل سارقة، ولكن السنة قيَّدت السرقة التي يجري فيها القطع بقيود، كأن تكون قيمة المسروق ربع دينار فصاعداً.

كما أنَّ السُنَّة أتت بأحكام كثيرة لم يأتِ بها الكتاب، فكانت تشريعاً جديداً، ولكنه ملحقٌ بأصل له، مثلُ أحكام الإرث والزواج والملكية العامة.

قال رسول الله ﷺ: **«المسلمونُ شركاءُ في ثلاثٍ: الماءِ والكلأ والنارِ»**[2].

أما الطعن في رواة الأحاديث، والذي يقوم به كثيرٌ من المستشرقين اليوم، وعدد من الباحثين الإسلاميين الذين قابلت بعضهم في كندا، فأعتقد أن هذا الطعن يجب أن ينال جميعَ المؤرخين، باعتبار أن رواةَ الأحاديث هم مؤرخون أيضاً، وفي هذه الحال ينبغي إلغاءُ جميع كتب التاريخ والمراجع التاريخية، فعلام الإبقاء على بعضها، والطعن في بعضها الآخر؟!

علماً بأن هنالك الكثير من الكتب التي توضِّح كيفيةَ تدوين السنة، وتكشفُ بجلاء عن فترة ما قبل التدوين.

وقد كُتِب عن الإمام البخاري أنه كان، قبل تدوينه أيَّ

---

(١) المائدة: ٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، حديث: ٣٤٧٧. ج٣/٢٧٨.

حديث، يغتسل ويتوضأ ويصلِّي ركعتين لله تعالى على نية السَّداد. ولا أعتقد أنَّ أحداً من المؤرخين في العالم، منذ بداية عملية التأريخ هذه إلى يومنا هذا، كان لديه هذا الحرص وهذه الخشية على صحة المعلومات المؤرَّخة.

من هذا السرد المقتضَب، الذي يقتضي دراسةً وافيةً شاملة، يمكن أن نصلَ إلى أن السنةَ دليلٌ شرعيٌ كالكتاب، وقد أتى قولُه ﷺ: «**تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتُم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتابَ الله وسُنَّتي**»[١] تأكيداً على ذلك.

إنَّ المستشار العشماوي، في اعتباره حديثَ الرسول ﷺ: «**يا أسماء، إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض...**» حديثاً للاستئناس والاسترشاد، قد ألقى ظلالاً كثيفة على اللوحة، متجاهلاً الآيات القرآنية التي تتفق مع الحديث في ذلك، بل إنه سلط على هذه الآيات أنواراً باهتة، فلم يرَ منها سوى أنها روايةٌ، أو قصةٌ دون هدف في حين أن هدفَ القرآن الكريم هو اختزانُ المعلومات، حتى يحين وقت الحاجة إليها فتسري فائدتها في كلِّ وقت وفي كلِّ زمان.

ومن هنا تأتي صلاحية الشريعة الإسلامية لكلِّ زمان ومكان، باعتبار أنَّها تعالج مشاكلَ الإنسان في كلِّ الظروف، مهما تجدَّدت وتنوَّعت هذه المشاكل. فالإنسانُ هو الإنسان. منذ عهد آدمَ عليه السلام والنداءِ العُلوي له، بارتداء لباس التقوى. في غرائزه، وحاجاته العضوية.... فمهما تطوَّرت وتنوَّعت، فالشريعةُ واسعة لمعالجتها، إلاَّ أنَّ هذه السَّعة لا تعني المرونةَ

(١) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب الجامع، باب: ١، حديث: ١ ص ٧٨٤.

المبالغَ بها إلى حد التغافل عن إحياء الذِّكر، وإيقاظِ العظة، واستخلاص العبرة، ضمن دائرة الحق المستند إلى العقل.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

وهكذا فإنَّ الحقَّ والباطل لا يجتمعان، لأنَّ الحقَّ قائمٌ على الدليل والعقل، والباطلَ منبعثٌ من الأهواء والشهوات، واللَّهُ سبحانه يقصُّ الحقَّ، أي يقصُّ على رسوله القَصص الحق في جميع أخباره: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

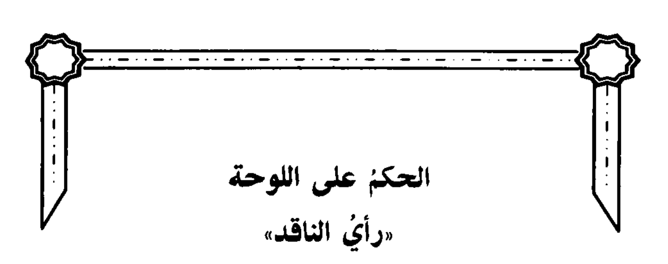
أي أنَّ الرسول ﷺ قد طُلب منه إيضاح سُبُلِ الهداية.

هذه الآية كفيلةٌ بغمر لوحة الحجاب بنور تنجلي معه الرؤيةُ، وتتنحَّى الظلال، لتبدو مكانةُ الرسول ﷺ في التبليغ والتفويض، ليُكمل رسمَ اللوحة بقلم عريض، مدادُه الحقُّ وغايتُه الهدى.



---

(١) الأنعام: ٥٧.



الحكمُ على اللوحة

«رأيُ الناقد»

بناءً على ما سبق، يمكن القول: إنَّ أيَّ ناقد يقفُ أمام هذه اللوحة، لوحة الحجاب:

- **وقفة الاعتدال.**
- **وينظرُ إليها بعينين سليمتين.**
- **نِظرة خاليةً من نزَعات العداء.**
- **معتمِداً ضوءاً كافياً.**
- **ولديه الكفايةُ من الثقافة الإسلامية «القرآن الكريم والسنة الشريفة».**

لا بد أن يعلن أنَّ لهذه اللوحة قيمةً رفيعةً، تستحق بناء سياج متين حولها، كي تبقى لها مكانتُها دون مَساس.

فما هي عناصر هذه القيمة؟

العنصر القيميُّ الأول:

في هذه اللوحة تحقيقٌ فعليٌ للمناداة بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فإن كانت المرأة المسلمة تجأرُ مطالبةً بهذه المساواة، حقّاً أكَّدت الشريعة الإسلامية نصيبها فيه، فإنَّها يجب أن تحصل عليه شكلاً ومضموناً.

وإنَّ تطبيق اللباس الإسلامي، كما وصفه الرسول ﷺ، هو الخطوة الأولى نحو تحقيق المساواة المنشودة.

العنصر القيميُّ الثاني

المحافظةُ على علاقة متوازنةٍ تحكمها الفطرةُ السليمةُ، التي أوجدها الله في الإنسان مِن ذكر وأنثى.

فيسعَى الرجلُ غريزياً نحو المرأة، يحثُّه شوقٌ فطريٌ سليمٌ لرؤية ما وراء الحجاب، وترسم له الشريعةُ الإسلامية مسلكاً وحيداً، يطرقُ فيه الرجلُ باب مؤسسة الزواج، التي تعيش في ربوعها المرأة موفورة الكرامة، ناعمةَ البال، قريرةَ العين ولن يفوتنا في هذا المجال أن نلاحظ التفكُّك الأسريَّ والاجتماعي، عندما أصبحت المرأة في دائرة المباح، ليس في المظهر فقط، بل بالانسياق تدريجياً نحو إقامةِ علاقاتٍ عشوائية بصفةِ الصداقة، ممَّا أدَّى إلى أن تصبح سلعةً يتداولها كل مَن تُقابل.

وقد تتردى الأوضاع إلى ما هو أسوأ، ويعاني الرجل أحياناً من فتور العاطفة، إذ أنَّ كلَّ ما هو معروضٌ مهانٌ، فيسعى إلى ارتياد نوادٍ لها عروضٌ خاصة، أو مراقبةِ أفلام معينة، كي ينقذ ما يمكن إنقاذه من فطرته المفقودة.

وفي كثير من الأحيان تبوءُ هذه المساعي بالفشل، فينغمس في متاهات الشذوذ الجنسي، كنوع من التجديد لحواسه وغرائزه،

فيسقط في مهاوي الأمراض المستعصية، ويصبح منبوذاً من مجتمعه، مشاراً إليه بالبَنان.

العنصر القيميُّ الثالث:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

القربُ منَ الله مسألةٌ تبعث على الشعور بالراحة والأمان.

والإنسانُ المسلم يقف بين يَدَي خالقه خمسَ مرات في اليوم، خاشعاً، خاضعاً، حاضرَ القلب والجوارح، وقد يكونُ الخشوعُ توأمَ الشعور بالحياء، والحياءُ يحمل سمة الاحتشام، محدَّداً بلباس التقوى الذي تكلَّمتُ عنه، فلا يظهر من المرأة، التي هي موضوع بحثنا، إلا وجهُها وكفَّاها.

وبناءً على ذلك، يمكن القول:

إذا تقيَّدت المرأة بهذا اللباس لدى ظهورها أمام الأغراب من الرجال فهي يمكن أن تؤدِّي صَلاتها أينما كانت وحيثما حلَّت، الصلاةُ عماد الدين الإسلامي، وقد قال الرسول ﷺ: «**بين الرجلِ والكفر تركُ الصلاة**»، كما ذُكر سابقاً. وقد حدد القرآن الكريم الأفراد الذين يمكن أن يدخلوا ساحة المرأة وهي دون الحجاب، فقال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(١) الرعد: ٢٨.

أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[1].

وقد سُئلتُ ذات مرة، أثناء حديث لي مع إذاعة الـ (B.B.C) لندن، عن الحكم في النساء المسلمات، المصليات، الصائمات، اللواتي يلتزمنَ فرائضَ الشريعة الإسلامية، ولكنَّهن يرفضنَ الحجاب، وبسبب انتمائهنَّ إلى إحدى فِرَق النقد الخمسةِ الآنفة الذكر.

وكانت الإجابة تقضي، حتماً بالعودة في الحكم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو القائل: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2].

ولكنّي أرى تساؤلاً كبيراً يبرز أمام هذا المثال: ماذا تصنع إحدى هؤلاء النسوة المصليات، إذا حضرها وقت الصلاة، وكانت خارج المنزل، مثلاً على متن طائرة أو سيارة، في الأسواق، أو في النزهة. في مكان العمل، المدرَسة، المصنع، المختبر. . . الخ؟

هنالك أحد احتمالين: إما أن تفوتها الصلاة، لأنها لا ترتدي «لباس التقوى» الذي يتيح لها الوقوفَ بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) النور: ٣١.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

أو أنها، وهي حالة نادرة، تحمل في حقيبتِها «لباس التقوى» هذا، فترتديه، وتصلّي، ثم تخلعه عند انتهاء الصلاة.

وهكذا، وكما قلتُ في المقدمة، يتحوَّل هذا اللباس إلى زيٍّ رسمي، يقترن بدقائقِ دوامٍ محددة، للقرب من الله أثناء الصلاة.

وأما هذا التساؤل تظهر حقيقةٌ عظيمة، مفادها أن التقرُّب من الله، في الشريعة الإسلامية، عمليةٌ ليست مقترنةً بطقوس معينة، متى انتهى المسلم من أداء ركوعه وسجوده واعتداله ابتعدَ عن الله.

وليست مرهونةً بمكان خاص، المسجد أو الجامع، متى غادره المسلمُ نسيَ ربَّه وهي كذلك ليست معتمدةً على لباس رسمي. إذا لبسَه تذكَّر خالقه، ثم ينساه عندما يخلعه، لأنه لم يعد بإمكانه الصَّلاة.

صلاةُ المسلم، في رأيي، ليست أبداً محدودةً بالدقائق التي يقفُ فيها مؤدِّياً أركانَ الصلاةِ المعروفة، فالمسلمُ، في الشريعة الإسلامية، في حالة صلاةٍ، أو صلة دائمة مع ربِّه، وهذه الصلةُ تبدأ عندما يبلغ سنَّ الرشد، ولا تنتهي إلا بانقضاء حياته.

هذه الصلة يمكن أن يبلغها المسلم في عمله، وفي فراغه، في سعادته، وفي شقائه، في صباه، وفي شيخوخته، في صحته، وفي سُقمه، في وحدته، أو وسطِ الناس، في شدته، وفي رخائه، مع مَن يُحبُّ، وأمام من يكره، مع أخيه المسلم، وأخيه الإنسان غير المسلم، مع عشيرته، أو خُلاَّنه، مع أصحابه وجيرانه.

فإن كان لباسُ التقوى هو لباسَ الصلاةِ للمرأة المسلمة، فما أحرى بها أن تكون دائمةَ الصلاة، ودائمة القربى منَ الله عز وجل.

العنصر القيميّ الرابع:

حَجبُ مواطن الفتنة التي تتميَّز بها المرأة.

لقد تكلَّمتُ عن آيتي الإبداء والإدناء، وعن حديثِ الرسول ﷺ بمشروعية إظهار الوجه والكفين.

ولي هنا وِقفةٌ قصيرة مع مَن يفرض على المرأة إخفاءَ وجهها وكفيها.

إنَّ هاتين الآيتين، يضافُ إليهما حديثُ الرسول ﷺ، تفيدُ كلُّها في الإظهار، فضلاً عن الإفادة في الإخفاء، وإنَّ إظهارَ الوجهِ يحولُ دونَ وقوعِ كثيرٍ منَ الالتباس الذي يمكن أن يتمَّ في ظلمةِ ما تحت النقاب، إذ يمكن لرجل ما أن يتخفَّى في زيِّ المرأة ويغطي وجهَه، أو يمكن لإحدى النساء أن تنتحلَ شخصيةَ امرأة أخرى، أو يمكن لإحداهن أن تقوم ببعض التصرفات المشبوهة دون أن تُعرف.

وإنَّ إظهارَ الكفين يؤدي النتيجةَ ذاتَها، لأنهما يحملان البصمات المميزة لأي إنساء. فوراء إخفاءِ البصمات يمكن إخفاءُ الكثير من الممارسات الخاطئة.

وفي الحديث عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا علي، لا تُتبعِ النظرةَ النظرة، فإنَّ لك الأولى، وليست**

لك الآخرة»[1]. والنقابُ يوفِّر على الرجل مجاهدةَ نفسه لكيلا يتجاوزة النظرةَ الأولى، وبالتالي لا تقعُ مسؤوليةُ اتِّقاء الفتنة على المرأة فقط، ويُعفى الرجل من ممارسة دوره المفروض عليه في هذه الساحة، وهذا ليس من الإنصاف في شيءٍ.

وإذا أردنا الوقوفَ ضمن حيِّز الفرض، فلا يمكن أن نقول: إنَّ إخفاءَ الوجه واليدين يقعُ ضمن هذه الدائرة. ولكن ومع الاستناد إلى نداء الله سبحانه المتكرر بـ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يمكن أن تلجأ المرأة إلى إخفاء وجهها، إذا كانت على قسط عظيم من الجمال يمكن أن تثير فتنة، واتقاءً للفتنة.

وهذه الحالة نادرة، قد تشكل نسبة ١٪، أو أقل من ذلك، وهي مقيَّدة بالشكل الذي لا يمكن أن يجري معه انتحال للصفات بطريقة ما.

ومهما يكن، فإن الحجاب أو «لباس التقوى» مع ظهور الوجه واليدين، محدَّداً بمراقبة السمع والبصر والفؤاد، يغلق الكثير من منافذ الغيرة والحسد بين النساء كما يوصد أبواباً واسعةً قد يدخلها بعض الرجال في مجال المقارنة، بين زوجته وزوجة صديقه، أو صديقة زوجته، أو جارته أو...، مما يعرِّض كيان الأسرة ويدمِّر بنيتها وتآلفها وانسجامها.

وكم سمعنا عن زيجات انتهت بالدمار نتيجة لمثل ذلك، والشريعة الإسلامية شريعةٌ تقدِّس الأسرة، وتسعى لسدِّ جميع

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، حديث: **٢١٤٩**. ج٢/٢٤٦.
والترمذي: كتاب الأدب، باب: ٢٨، حديث: ٢٧٧٦. ج٥/١٠١.

المنافذ التي من شأنها أن تزعزع بناءَها. فإن كان بناء الأسرة متيناً، كان صرح المجتمع قوياً سليماً متماسكاً.

العنصرُ القيميُّ الخامس:

قد يقولُ البعض: أين الحكمة إذن في الحجاب لامرأة مسنَّة لم تعد تملك مِن مقوِّمات الفتنة ما يضطرها إلى إخفائه؟

إنَّ الحجابَ هويةٌ تحملُ صفةَ الانتماء، والانتماءُ بدوره مسؤوليةٌ تُلزم المرأةَ بالارتقاءِ دائماً، كي تكون جديرةَ بحمل هذه الصفة.

وهذه المسؤولية مُلقاةٌ على كاهل المرأة في أيِّ سن، منذ سنِّ البلوغ، أي عند اكتمال العقل وحتى نهاية الرحلة، رحلة العمر.

إنَّ هذا الاعتبار يعيد إلى الأذهان الحكمةَ التي نوَّهتُ إليها في كتابي السابق:

«ليست الحقيقةُ التي تجعل الإنسان عظيماً، إنَّما الإنسانُ الذي يُضفي على الحقيقة عظمَتها».

كم هي متعددة وكثيرة تلك الحقائق التي نملك، والقليلُ منَّا من يجعلُ منها شيئاً عظيماً!

فالحبُّ حقيقة، وهو يبدو للوهلة الأولى حقيقةً رائعة، ولكن كم هي التطبيقات الشوهاء التي جعلت من تلك الحقيقة حقيقةً بائسة؟!

فهنالك الحقُّ المدمِّر، والحبُّ الأناني الذي يأخذ ويأبى

العطاء، وهنالك الحبُّ القاتل، «ومنَ الحبِّ ما قتل».

والزواج حقيقة، ولكن كم منَ الأزواج جعلوا مِن هذه الحقيقة حقيقةً مشوَّهة، كانت كثيرٌ من النساء يتمنينَ، في ظلها، لو أنهنَّ لم يعرفنَها، وبقينَ في عداد العوانس. وسأكون منصفة، وأقف أيضاً في صف الأزواج، وأقول للكثيرات: كم منَ الزوجات لم تحترم دخولَها إلى مؤسسة الزواج، وأساءت لقوانينها، وجعلت الكثير من الرجال يرون في قضبان القفص الذهبي قيوداً صدئة شائكة؟!

الحجاب مسؤولية:

وليس بالشكل وحده يكون الانتماء إلى الإسلام.

ولنَعُد إلى حقيقتنا الأولى التي نحن بصددها:

إن الحجاب «**لباسَ التقوى**» هويةٌ تدلُّ على حقيقة انتماء المرأة المسلمة لدينها، ويلزمُها أن ترتقي بهذه الحقيقة إلى ما يجب أن تكون عليه، فلا نرى بعد ذلك مسلمات لا ينتمين إلى الدين الإسلامي إلا بالحجاب، ولا نرى فرقاً كبيراً بين الإسلام وكونه حقيقة عظيمة خالدة، وبين مسلمين لا تحمل تصرفاتكم ملامحَ هذه العظمة وهذا الخلود.

هنالك الملايين من المسلمين في العالم اليوم، ولكن كم منهم الذي أحسَّ بمسؤولية الانتماء؟

إنَّ من يشعر فعلاً بهذه المسؤولية هو الذي يعيش حقيقة الإسلام، في جوارحه وأعماله وأقواله، والحقُّ أنَّ هذه هي شروط الداعية، أو الداعي، إلى هذا الدين الحنيف.

والدعوة الدينية لن تتمَّ أبداً بواعظ يجلس بين رهط من القوم، فيذكر الله ويصلي على نبيه ﷺ، ثم يسترسل في سرد حكايات وأقاصيص، يهلل له بها المستمعون، فالسلف الصالح ليس بحاجة إلى أكفٍ تصفِّق، ولا إلى ألسن تمتدح، ولا إلى روايات تشيد بأعمالهم، إنه بحاجة إلى تطبيق لما قاموا به.

كان شعارهم دائماً حديث رسول الله ﷺ، الذي لو طُبِّق في عصرنا هذا لأغلقت دور القضاء أبوابها، ولاختصرت نفقات باهظة لآلاف، بل ملايين الكتب والمجلدات والأبحاث التي تتعلق بحقوق الإنسان، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتربية...

إنه الحديث القائل:

«لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه»[1].

إذن هذا هو الشرط الأول للإيمان. وإذا طُبق هذا الشرطُ ساد السَّلام، وعمَّ الخيرُ الأرض.

إنَّ المسلم الذي يُطبِّق هذا الشرط على نفسه، هو الذي يستحق أن يتربعَ على منبر الوعظ، ويصبح المسلمون كلهم دعاة لهذا الدين، والمرأةُ المسلمة لا يمكن أن ترتقي سلمَ الدعوة دون هوية تميزها عن باقي النساء. والدعوة، كما قلت، يمكن أن تُمارَسَ بدءاً من أبسط العلاقات حتى أعقد الأحكام.

والرسول ﷺ عندما علَّق الإيمان بمقدار ما يحبُّ المرء لأخيه، لم يذكر أخاه المسلم، بل ذكر أخاه فقط، وهو بذلك قد

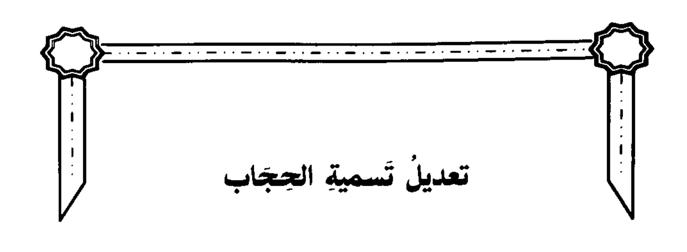
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان. باب: ٦، حديث: ١٣. ج١/١٤.

فتح أمامَ كل مسلم ومسلمة الدعوةَ من خلال تعاملِ المسلم المالي والاجتماعي مع إخوانه المسلمين، وغير المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى، فالكلُّ له حريته واحترامه وحقوقه وواجباته[1].



(١) سأحكي، في فصل أنا والحجاب، قصة قصيرة تعزّز رأيي في أسلوب الدعوة ودور الحجاب في ذلك.



تعديلُ تَسميةِ الحِجَاب

إبدالُ تعبير «لباس التقوى» بـ «الحجاب».

إنَّ التعبيرَ الدارج بإطلاق لفظة «الحجاب» لوصف لباس المرأة المسلمة خطأ يستدعي الإيضاح والتصحيح، فقد صار شائعاً على ألسنة الناس تسميةُ اللباس الشرعي حجاباً، وإطلاق لفظ «محجَّبة» على المرأة الملتزمة بهذا اللباس، ولكن بعد أن تبينَ لنا ممَّا تقدَّم أنَّ هذا اللباس هو إطلاق لصفة التقوى على المرأة، فيمكننا أن نستبدل بهذه الكلمة صفةَ «لباس التقوى» فيما سيلي:

وإن الآياتِ الواردةَ في القرآن الكريم تفيد أنَّ الحجابَ يعني شيئاً يحجز بين طرفين، فلا يَرى أحدهما الآخر، أي تنعدم معه الرؤية تماماً، ولا يمكن أن يعني لباساً يلبسه إنسان، لأنَّ اللباسَ ـ أيّاً كان قدرُه ونوعه، ولو ستر جميعَ بدن المرأة حتى وجهَهَا ـ لن يمنع هذه المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا شخصَ المرأة، وإن تسربلت بالسواد من قمة رأسها مع وجهها، حتى أخمص قدميها.

والآيات التي وردت فيها لفظة «الحجاب» تفسِّر ذلك. قال تعالى:

● ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

● ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾[2].

● ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾[3].

● ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[4].

● ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾[5].

● ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[6].

---

(١) الأعراف: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) ص: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) فصلت: ٥.

(٤) الشورى: ٥.

(٥) الإسراء: ٤٥.

(٦) مريم: ١٦ ـ ١٧.

• ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾[1].

وإن المقصود بالحجاب في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾[1] هو السّتر الذي يكون في البيت، ويُرخي ليفصلَ بين مجلسِ الرجال ومجلس النساء. فـ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[1]، أمّا طهارةُ القلوب بالنسبة للرجال، فبسبب أنهنَّ لا يَرون أمهاتِ المؤمنين، وأما بالنسبة لأمهات المؤمنين فبسبب أنهنَّ لا يَرَين الرجال.

أما اللباس الذي تلبسه النساء، حتى مع تغطية الوجه، فيسمح لهن برؤية الرجال إذن فمصطلح الحجاب كان خاصاً بأمهات المؤمنين، وهو أدبٌ خاص بنساء النبي ﷺ في تعاملهن مع الرجال داخل البيوت. وذلك تمييزاً لهن عن بقية نساء المؤمنين، وتكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، وقد جاء هذا الأدب متمّماً لأدب آخر، وهو القرّار في البيوت، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[2].

والأدبان كلاهما فيه صيانةٌ متميزة لنساء النبي ﷺ، تمهيداً لتبَتُّلِهنَّ، وحظر النكاح عليهنَّ بعد وفاة الرسول ﷺ تحقيقاً لقوله تعالى في خاتمة آية الحجاب: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[3].

---

(١) الأحزاب: ٥٣.
(٢) الأحزاب: ٣٣.
(٣) الأحزاب: ٥٣.

وتأتي السنة الشريفة لتعطيَ مصطلحَ «الحجاب» ذات المعنى الواردِ في القرآن الكريم:

● عن عمرَ رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله، يدخُل عليك البَرُّ والفاجرُ، فلو أمرتَ أمَّهات المؤمنين بالحجار. فأنزلَ اللَّهُ آية الحجاب[1].

● عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

كنتُ أعلمَ الناسِ بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما أُنزل في مُبتَنى رسولِ الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبيُّ ﷺ بها عروساً، فدعا القومَ فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، فبقي رهطٌ منهم عند النبي ﷺ وأطالوا المكث. فقام النبيُّ ﷺ فخرجَ وخرجتُ معه لكي يخرجوا، فمشى النبيُّ ﷺ ومشيتُ، حتى إذا جاءَ حُجرةَ عائشةَ، ثم ظنَّ أنهم خرجوا، فرجعَ ورجعتُ معه، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجعَ النبي ﷺ ورجعتُ معه، حتى إذا بلغ عتبةَ حجرة عائشة، ثم ظنَّ أنهم خرجوا، فرجعَ ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضربَ النبيُّ ﷺ بيني وبينه بالستر، وأُنزل الحجابُ[2].

● عن عائشة رضي الله عنها قالت:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: ١١، حديث: ٤٢١٣. ج٤/١٦٢٩.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب النكاح. باب: ٦٧، حديث: ٤٨٧١. ج٥/١٩٨٢.
ومسلم: كتاب النكاح: ١٦، باب: ١٥، حديث: ١٤٢٨. ج٢/١٠٥٠.

جاء عمِّي من الرِّضاعة فاستأذنَ عليَّ فأبَيتُ أن آذنَ له حتى أسألَ رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن ضُرب علينا الحجابُ.

وفي روايةٍ قال: أتحتجبين منِّي وأنا عمُّك؟ وفي روايةٍ: استأذنَ عليها فحجبَته، فأخبرت رسولَ الله ﷺ فقال لها: «**لا تحتجبي منه**»[1].

● عن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث قال:

«... فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ الظهر سبقناه «أي عبدالمطلب والفضل بن العباس إلى الحجرة، فقُمنا عندها، حتى جاء فأخذ بآذاننا...، فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلِّمه...، وجعلت زينب رضي الله عنها تلمع إلينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه»[2].

● عن أنس رضي الله عنه قال: أقام النبيُّ ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاثاً، يُبنى عليه بصفيَّة بنتِ حُيَي. فقال المسلمون: إحدى أمَّهات المؤمنين، أو مما ملكت يمينُه؟

فقالوا: إن حجَبها فهي مِن أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه فلما ارتحل وطَّأ لها خلفه، ومدَّ الحجاب بينها وبين الناس[3].

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب: ١١١٦، حديث: ٤٩٤١. ج٥/٢٠٠٧.
ومسلم: كتاب الرضاع: باب: ١، حديث: ١٤٤٤. ج٢/١٠٧٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: ٥١، حديث: ١٠٧٢. ج٢/٧٥٢.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب: ٣٦، حديث: ٣٩٧٦. ج٤/١٥٤٣.

هذه النصوص من السنة، وهناك الكثير غيرها يمكن الاطلاع عليها في «اختصاص لفظ الحجاب في صحيحي البخاري ومسلم بأمهات المؤمنين» أما عن لباس المرأة المسلمة وهو ما أشرت إليه سابقاً بتغيير «لباس التقوى».

فقد ورد في القرآن الكريم بالآيات التالية، كما أشرت سابقاً أيضاً:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[1].
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾[2].
- ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾[3].
- ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾[4].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾[5].
- ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٦٠﴾[6].

---

(١) الأعراف: ٢٦.
(٢) الأعراف: ٢٧.
(٣) النور: ٣١.
(٤) النور: ٣١.
(٥) الأحزاب: ٥٩.
(٦) النور: ٦٠.

أمَّا ما ورد في السُنَّة بشأن لباس المرأة المسلمة:

• «ميمونة كانت تصلي في الدِّرع والخِمار ليس عليها إزار»[1].

• «امرأةٌ استفتت عُروةَ فقالت: إنَّ المنطقَ يَشُقُّ عليَّ، أفأصلي في درع وخمار؟ فقال: نعم، إن كان الدِّرع سابغاً»[2].

• «عائشة زوجُ النبيِّ ﷺ كانت تصلي في الدِّرع والخمار»[3].

• «كنَّ نساء المؤمنين يشهدنَ مع رسولِ الله ﷺ صلاةَ الفجر متلفِّعاتٍ بمُروطِهنَّ»[4].

إنَّ تصحيحَ التعبير الوارد خطأ عن تسميةِ لباس المرأة المسلمة بالحجاب لا يعني تجاهلَ اللباس، وإنما التمييزَ بين الحجاب بمعناه اللغوي، وبين اللباس الواردِ ذكرهُ في القرآن الكريم والسنة الشريفة، كما ذكرتُ آنفاً.

لذا سأستخدمُ فيما يلي تعبيرَ «لباس التقوى» عوضاً عن «الحجاب»[5].



(١) أخرجه مالك في الموطأ: كتاب صلاة الجماعة، باب: ١٠، حديث: ٣٨، ص١٣١.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ: المكان نفسه، حديث: ٣٩.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ: المكان نفسه، حديث: ٣٦.

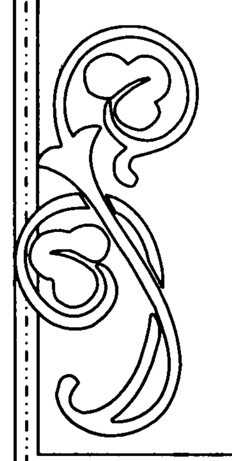
(٤) حديثٌ سبق تخريجه.

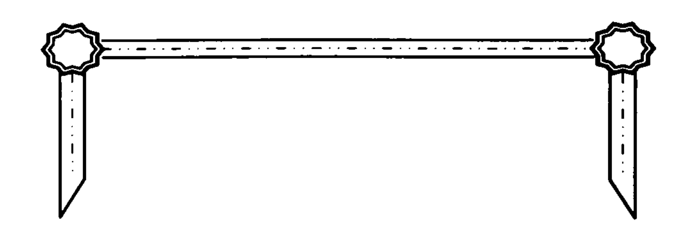
(٥) لم أشأ أن أورد هذا الفصل في بداية الكتاب. إذ أردتُ أن أنقذَ لوحةَ «الحجاب». كما اعتاد الناس تسمية، وبعد أن استتبَّت مراحل النقد، وتمَّ شرحَ حيثيات الحكم، أوردتُ التصحيحَ اللغوي فيما يلي من صفحات الكتاب.

الفصل الثالث

نسخ مشوهة

- لوحة الحريم.
- اللوحة المسروقة.
- اللوحة الخالية.
- اللوحة الناقصة.
- اللوحة القبيحة.
- نسخ أخرى.
- صورةٌ للاقتداء.

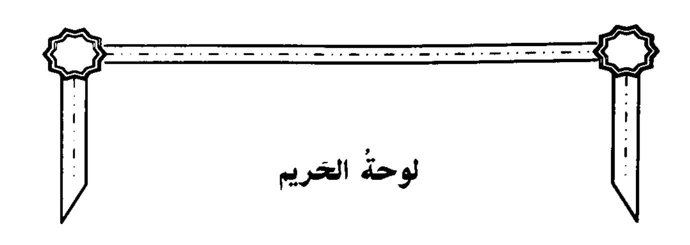




إنَّ القيمةَ الرفيعةَ للوحةِ «لباس التقوى» لن تنخفضَ، مهما كَثُرت النسخ السيئةُ الطباعةِ، المشوَّهةُ، التي يُتاجرُ بها باعةُ الأرصفة.

... وتأتي هذه اللمساتُ النهائيَّةُ لتُضفيَ مَسحَةَ النُّبلِ والرِّقَّةِ على قَسَمَاتِ اللوحةِ، فيبدُو لنا الإنسانُ المسلمُ متميزاً، تنفتحُ له قلوبُ مَن حولَه، وتهفُو النفوسُ إلى صُحبته، والتعرُّفِ إليه، والاقتداءِ به.





لوحةُ الحَريم

وإنَّ «**لوحة الحريم**» نسخةٌ مشوَّهةٌ من تلك النسخ، وأعني بها المبالغةَ في الحجاب، بحيث يتجاوزُ حدود الحشمة المفروضة، وكونَه «لباس التقوى» إلى حجبِ المرأة عن المجتمع، وإقصائِها عن مجالات العلم والعمل والتعليم.

إنَّ هذا الفهم المتطرِّفَ قد يُودي المرأة إلى مصيرٍ مظلم، كالتسوُّل مثلاً، أو الانحراف في حال غياب الزوج أو الابن أو الأخ... أي في حالِ فقدان المعيل.

الحريمُ لا يسمحُ بتنمية شخصيَّة المرأة التي كانت تشارك رسول الله ﷺ في الجهاد.

لقد عملَ الإسلامُ على تنميةِ شخصيةِ المرأةِ، فكانت تُكثر منَ الخروجَ مع صواحبَ لها إلى الجهاد في سبيل الله.

● عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سُليم ونسوةٍ من الأنصار معه إذا غزا، فيسقينَ الماءَ ويُداوين الجرحى[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: ٤٧، حديث: ١٨١٠. ج٣/١٤٤٣. وأخرجه الترمذي، وأبو داود.

• وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلُفُهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام[1].

وتُسهم في الحركة العلميَّة.

فقد كانت النساء يُحَاوِرونَ الرجالَ في أمور العلم، كما كان الرجال يطلبون العلم من أمَّهات المؤمنين.

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ[2].

وتعينُ على عمل المعروف.

كما أنَّ هنالك بعضَ المشاهد التي توضِّح كيف كان لقاءُ النساء بالرجال يُعين على عمل المعروف. فكانت «أم شريك» تفتح بيتها للضِّيفان، فينزل عليها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ، وكأنه منتدىً للخير.

• عن فاطمةَ بنت قيس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**انتقلي إلى أمِّ شريك**» وأمُّ شريك امرأةٌ غنيةٌ من الأنصار، عظيمةُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: ٤٨، حديث: ١٨١٢. ج٣/١٤٤٧.

(٢) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب: ١، حديث: ٤٧٧٦. ج٥/١٩٤٩.
ومسلم: كتاب النكاح، باب: ١، حديث: ١٤٠١. ج٢/١٠٢٠.

النفقة في سبيل الله. ينزل عليها الضِّيفان. فقلت: سأفعل. فقال: **«لا تفعلي، إنَّ أمَّ شريك امرأةٌ كثيرةُ الضِّيفان»**. وفي رواية: **«يأتيها المهاجرون الأوَّلون»**[1].

وتنهَى عن المنكر كائناً من كانَ فاعلُه.

وكانت المرأةُ تشارك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[2].

ويحكي التاريخُ قصَّةَ أمِّ الدرداء امرأةِ الصحابي الجليل أبي الدرداء، حين تصدَّت للخليفة عبدالملك بن مروان، فنهَته عن منكرٍ صدرَ منه.

● عن زيد بن أسلمَ أنَّ عبدَالملك بن مروان بعثَ إلى أمِّ الدرداء بأنجادٍ[3] من عنده، فلما أن كان ذات ليلةٍ قام عبدُالملك من الليل فدعا خادمَه، فكأنَّه أبطأ عليه، فلعنه، فلما أصبح قالت له أم الدرداء: سمعتُك الليل لعنتَ خادمك حين دعوته. وإنِّي سمعتُ أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: **«لا يكون اللَّعَّانون شفعاءَ ولا شهداءَ يوم القيامة»**[4].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب: ٢٤، حديث: ٢٩٤٢، ج٤/٢٢٦١.
(٢) التوبة: ٧١.
(٣) أنجاد: متاع البيت الذي يُزيِّنه، من فرش ونمارق وستور.
(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب: ٢٤، حديث: ٢٥٩٨ ج٤/٢٠٠٦.

ولقد بلغت مكانةُ المرأة المسلمة ومشاركتها في صيانة المجتمع وتسديد مسارِه مبلغاً عظيماً حيث كانَ لها من الجرأة والشجاعة ما جعلها تنكر على الحاكم ظلمَه.

● عن أبي نوفل قال: دخل الحجَّاجُ بن يوسف الثقفي، بعد مقتل عبدالله بن الزبير، على أسماءَ بنتِ أبي بكر فقال: كيف رأيتني صنعتُ بعدوِّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدتَ عليه حياته، وأفسدَ عليك آخرتك. أمَّا إنَّ رسول الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذاباً ومبيراً[1]، فأمَّا الكذَّابُ فرأيناه، وأمَّا المبير فما إخالك إلا أيَّاه. قال: فقامَ عنها ولم يُراجعها[2].

فالإسلامُ لم يبعد المرأة عن ميدان المشاركة في مختلف مجالات الحياة وأنشطتها، بل كانت تنطلق في حياتها على نورٍ من هدى الله تعالى، الذي أنزله في كتابه وسنَّة رسوله ﷺ.

۞ ۞ ۞

الغايةُ من تعليم المرأة

أمَّا تعليمُ المرأة فإنَّه يحقِّق أمرين أساسيين:

أولهما: تمكينُها مِن رعاية البيت والأسرة أكملَ رعاية، لتكونَ جديرةً بحمل مسؤوليتها عند الزواج، تحقيقاً لقول الرسول ﷺ: «**المرأةُ راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولدهِ وهي مسؤولةٌ عنهم**»[3].

---

(١) المبير: المهلك. وتشير إلى كثرة قَتله.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: ٥٨، حديث: ٢٥٤٥. ج١٩٧١/٤.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب: ١، حديث: ٦٧١٩. ج٢٦١١/٦.

ثانيهما: تمكينُها من إتقان مهنةٍ مناسبة، تمارسها عند الحاجة، سواءً أكانت حاجةً فردية، أم أسريَّة، أم اجتماعية.

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأةٌ معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرةٍ واحدة، فأعطيتُها لها، فقسمَتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجتَ. فدخل النبيُّ ﷺ، فحدَّثتُه فقال: «**مَن وَليَ مِن هذه البنات شيئاً فأحسنَ إليهنَّ كنَّ له ستراً منَ النار**»[1].

وفي هذا الحديث توجيهٌ عميقٌ إلى أنَّ مِن دواعي الشرف والإحسان لهذه المرأة لو أنها قدرت على العمل وإطعام نفسها وابنتيها مِن كسبٍ حلال طيب، بدلاً من سؤال الناس والأكل مِنَ الصدقة، وهي كما قال الرسول ﷺ: «**إنما هي أوساخ الناس**»[2].

۞ ۞ ۞

امرأةٌ تجني نخلها في العدَّة.

لقد نهى الرسول ﷺ عن حجب المرأة وإقصائها عن المجتمع في حالة اضطرارها للعمل، حتى ولو كانت في فترة العدة.

● عن صابر بن عبدالله قال: طُلقَت خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها ـ في فترة العدة ـ فزجرها رجل أن تخرج، فأتت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب: ٥١، حديث: ١٠٧٢. ج٢/٧٥٢.

النبيَّ ﷺ فقال: «**بلى. فَجُدِّي نخلَك، فإنَّك عسى أن تصَدَّقي أو تفعلي معروفاً**»[1].

نقابٌ معنويٌّ كثيفٌ.

وإذا كانت الآياتُ السابقة «في سورتي: النور: **٣١**، والأحزاب: **٥٩**»، والأحاديثُ الشريفة، قد رسمت خطوطاً عريضةً لملابس المرأة المسلمة فلم يظهر منها إلا الوجه الكفين، فإن الآيات التالية هي خيوطٌ متينة تنسج نقاباً كثيفاً، بل أكثف مِن أي نقاب آخر ماديٍّ تُسدله المرأة على وجهها، فحدَّدت الآياتُ الأولى الزيَّ المحتشم الذي لا يَشفُّ ولا يصف، ثم أتت هذه الآيات الأخيرةُ لتحدِّد:

(**١**) الجِدِّيةَ في التخاطب:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[2].

(**٢**) والوقارَ في الحركة:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[3].

(**٣**) النهيَ عن التبرُّج والتجمُّل بمساحيق الزينة:

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب: ٧، حديث: **١٤٨٣**. ج**١١٢١/٢**.
(٢) الأحزاب: **٣٢**.
(٣) النور: **٣١**.
(٤) الأحزاب: **٣٣**.

(٤) والنهيَ عن استعمال الطيب، وفي عصرنا الحاضر الـ
Perfum :

فعن زينب، امرأة عبدالله، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا شهدت إحداكنَّ المسجد فلا تمسَّ طيباً**»[1].

(٥) وفَرضَ الرزانةِ في السلوك في المجتمع، وفي السوق... الخ:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾[2].

وبهذا «النِّقاب» تدخل المرأة ميدانَ المشاركة مع الرجل بشكل فعَّال في سائر القضايا الإنسانية والاجتماعية والعلمية، دخولَ الواثق، وتستطيع العملَ وإعالةَ أسرتها في حال فقدان المعيل ـ كما قلت ـ فلا تهبط، بهذه المشاركة بينها وبين الرجل إلى مستوى فتاة المتعة وأداة الترفيه عن الرجل ولا تغدو في عداد الحريم.

إنَّ ضوابط الحشمة:

التي هي ترجمةُ «لباس التقوى» الإسلامي أولاً.

وصيانة السمع والبصر والحركة ثانياً.

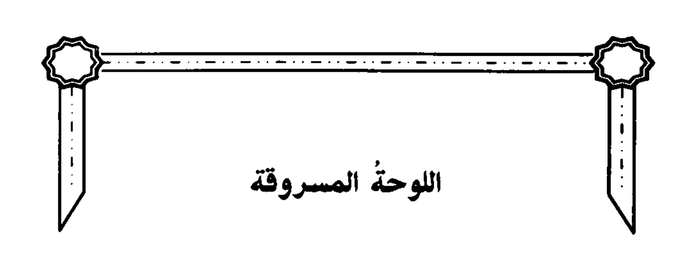
هي طريق يؤدي إلى عدم تعطيل طاقة المرأة من جهة، والمحافظةِ على طهارة البيت وطهارة المجتمع من جهة أخرى.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب: ٤٤٣/٣٠. ج٣٢٨/١.

(٢) النور: ٣١.



اللوحةُ المسروقة

كانت الجاهليةُ، وكانت للمرأة صورةٌ وحيدة هي: المرأة الموروثة، المؤودَة المهاة.

ولما جاء الإسلام حاملاً في جعبته شعارَ المساواة، قدَّم صوراً مشرقة للمرأة: الأمّ المقدَّسة، الأخت المؤنسة، الزوجة المكرَّمة، الابنة الغالية...

كما أبرزَ وثائقَ حَفظت للمرأة حقوقها، كما سبق أن قلت: هي مجموعة أُخذت من مجموعة أخرى شاملة، رَسمت الإنسان، الرجل والمرأة، في التصوُّر الإسلامي.

فلوحة الحجاب، لباس التقوى، ما هي إلا قطعة Puzzle في لوح كبير للمرأة، وإنَّ قِوامة الرجلِ على المرأة تمنحه حقَّ السلطة، وتفرض عليه في ذات الوقت، واجبَ العطاء والإنفاق على زوجته، فيغنيها عن السعي لكسب العيش.

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1].

---

(1) النساء: ٣٤.

الرجلُ الذي ينسى
حقَّ المرأة ويطالبُ بحقوقه

سارقٌ للوحة لباس التقوى

في بعض الأحيان يُسيء بعضُ الرجال استعمالَ هذه السُلطة، فيُحجم عن أداء ما يتوجب عليه من واجبات مادية ومعنوية، ولكنه يطالب بحقوقه وبما يملك من سُلطة القِوامة، فيسعى للحصول على لوحة «لباس التقوى» دون غيرها، ويُهمل ما يجاورها من حقوق للمرأة: مالية، اجتماعية، حرية شخصية: اختيار الزوج، التصرُّف بالأموال، المبايعة والمشاركة السياسية في الدولة. . .

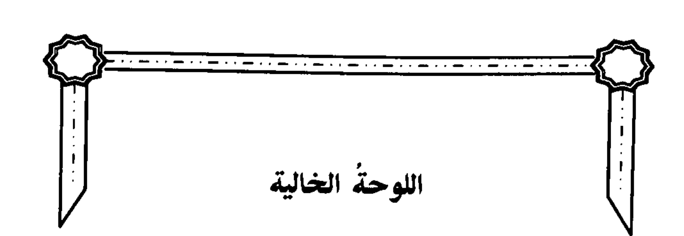
وكما يطيب للرجل أحياناً اقتناءُ قطع الأثاث في منزله، قد يطيب له الاحتفاظ بلوحةِ لباس التقوى، إرضاءً لعشيرته مثلاً، أو جيرانه، أو مجتمعه. . . أو إرضاءً لنزعة الملكية في ذاته، دونَ إخضاع منه لهذه الذات لفروض الشريعة الإسلامية، فلا يلتزمُ بالصلاة، أو لا يؤدي الزكاة، ولا يغضُّ البصر عن نساء الغير، وقد يرتكب بعضاً أو كثراً من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم ينثني إلى لوحة «لباس التقوى»، فيقف أمامها فخوراً بأنه رجل متدين، سعيداً، منتفخ الأوداج، حاشراً معلوماته الإسلامية بكثافةِ حجاب المرأة التي يملك عليها حقَّ القوامة إنَّ انتزاع الرجل لهذه القطعة الـ Puzzle، إن هو إلا سرقةٌ تنجمُ عنها نسخةٌ أخرى مشوهةٌ أمام الآخرين، الذين لم يشاهدوا من لوحة لباس التقوى إلا هذه النسخة التعيسة.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

فالسَّرقة وِزرٌ، وتشويهُ اللوحة وزر آخر، واتِّهامُ اللوحة الأصل وزرٌ ثالث. وعندما تُطلق المرأة صيحةَ التمرُّد أمامَ ممارسات السُّلطة المجحفة، تختلط لديها أوراقُ النسخ المشوَّهة والصورة الأصلية، وتضيع أمامها ملامحُ الحقِّ! والباطل، والخطأ والصواب، فتقعُ في مهاوي الوزر الثالث.



(١) الإسراء: ١٣ ـ ١٥.



اللوحةُ الخالية

رأَينَا أنَّ الرجلَ الذي لا يلتزم بالفرائض الإسلامية لا يملك مقوِّماتٍ شرعية يشتري بها اللوحة، فيسرقها. . . وتعلن المرأة أحياناً العصيان، نتيجةً لحالة التناقض في سلوك الرجل، فتضيع عليها الرؤيةُ السليمة.

أما عندما يسلك الرجل سُبُل الاستقامة فإنه يدَّخر رصيداً من المقوِّمات التي تُوْله شراءَ اللوحة، فيقدِّمها هديةً لها. . . وتتقبَّلها المرأةُ دون تمردٍ أو تردد.

وهكذا فالفرقُ شاسع بين الطريقين:

فريقٌ أولُ: قدَّمَ لأهله سقفاً دون أساس أو أعمدة.

وفريق ثانٍ: قدم كَنفاً آمناً، وأساساً متيناً يستند إلى دعامات عميقة الرسوخ.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1].

---

(١) التحريم: ٦.

وهكذا فإنَّ تَبِعةَ المؤمن في نفسه، وفي أهله، تبعةٌ ثقيلة، والمسؤوليةُ الملقاة على كاهله كبيرةٌ، وعليه أن يدفعَ عن نفسه وأهله مصيراً رهيباً، الناس فيها كالحجارة، سواءٌ في مهانة الحجارة، أو في قذفها دون عناية أو اعتبار.

وهكذا يلوح أمامنا فريق ثالث: فريقٌ لا يملك كنفاً آمناً، ولا حصناً منيعاً، لا وقاية ولا حماية، حتى هذا السقف الطائر في الخواء، لا يقدر على الإتيان به. إنه لا يملك سوى سرابٍ قصير، سراب الدنيا الزائل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

☼ ☼ ☼

عندما يسرق الرجلُ حقَّ القوامة.

عندما يستخدم الرجل سُلطته فيمنعُ المرأةَ، أختَه، زوجتَه، ابنتَه، من ارتداءِ لباس التقوى، عندما يمارس مثل هذه السُّلطة، فإنه يسرق من الشريعة الإسلامية حقَّ القوامة، دون أن يملك الحق الشرعي في ذلك، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(١) التوبة: ٢٣ ـ ٢٤.

وتحصل هذه الحالة لأسباب كثيرة، لا سبيل لحصرها، منها عدم قناعته أصلاً بلباس التقوى، أو إشفاق على زوجه أن تخسر شكلَها الحضاري وأناقتَها المستوردة أو أنه يخجل أن يعلن هوية امرأته المسلمة في المجتمعات الغربية... الخ.

☼ ☼ ☼

فما موقفُ المرأة في هذه الحال.

إنَّ المرأة التي تستبدل وشائجَ الدمِ والقرابةِ والزوج بوشائج القُرب من الله ورسوله وطاعتهما، عليها مجابهةُ واقع التربُّص... والتهديد!

والمرأةُ التي اطمأنَّت إلى سراب المسكن الطيب، ومظاهر الحبِّ، وروابط الدم والقربى، عليها أن تستعدَّ ليوم تقفُ فيه وحيدة في ساحة مقفرة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وبين واقعِ التهديد وواقعِ المُقفر، يَكمنُ شعورٌ بالذعر المستطار، فالتهديد، عامةً، يُوقع الاضطراب والرعبَ في النفوس، والوحدة المطبقة من القرابة، والعواطفُ الحميمة، تشيع في النفس برودةً ثقيلة، أمَّا اجتماعهما. التهديد والوحدة. فهو الهول... وأيُّ هول!

---

(١) عبس: ٣٤ ـ ٣٧.

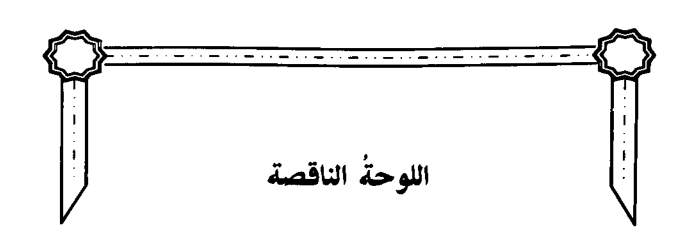
قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[1].

والسِّياق القرآنيُّ يرسم هنا مشهداً مؤسفاً مؤثِّراً. فلو أنَّ المرأة، التي كانت تخضع للرجل فتطيع رغباته وتتَّبع أهواءَه مدَّت بصرها إلى يوم الوقوف بين يدي الله، فسوف ترى وِقفةَ الذلُّ وهو يُشيحُ عنها، ويُعرض بوجهه متجاهلاً إياها، بل إنّه ينكر كلَّ وشيجةٍ تربطه بها، فكل واحدةٍ مشغولٌ بنفسه، تابعاً كان أم متبوعاً. إنها لافتةُ إنذار وتحذير قبل أن يفوت الوقت، فلا ينفع الندم ولا تُجدي الحسرة على ما فات.

والمرأة التي تتخلَّى عن لوحة لباس التقوى إرضاءً للرَّجل تحت شعار «لا حيلة لي في الأمر»، إنَّما هي تسلكُ سبيل المراوغة، وهي لن تستطيع الفرار من واقع التَّربص الذي يسدُّ جميع السبل، ويُغلق كلَّ المسالك.



(١) البقرة: ١٦٦.



اللوحةُ الناقصة

وكما يحلو لبعض العابثين من الرجال سرقةُ اللوحةُ، أو تفريغُها والاحتفاظ بإطار أجوف لصورةٍ مزَّقها كثير من الناس فبقيت لوحةً خالية؛ فقد يحلو لبعض النساء العبثُ بأسلوبٍ آخر.

تنشأ المرأة أحياناً في بيئة تعدُّ لباس التقوى أمراً مفروضاً عليها تطبيقه، ولا مناص من ذلك، فلا تقيم وزناً إلى أنه شعارٌ عظيم، وحكمةٌ إلهية، ومنهجٌ تربويٌ قيِّم.

لباس التقوى حصلت عليه بعضُهنَّ عن طريق المصادفة المحضة، أو بأسلوب الدفع الذاتي عبر السنين، تلقَّته المرأة إرثاً من جدتها أو أمها أو بيئتها... وتسهو هذه المرأة الوارثة للحجاب عن قضيةٍ مفادها «الإنفاق» كي تقتني المجموعةَ الكاملة لصور المرأة المسلمة، التي تشكِّل جزاءاً من صورة الإنسان المؤمن، الذي رسمته هذه الآية، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

هذه هي المجموعةُ الكاملة التي يشكِّل لباسُ التقوى جزءاً منها، وقمةُ التقوى الصلاة. إنَّ عنصر التشويه في هذه اللوحة هي في كونها ناقصةً، مبتورةً، أتت بجزءٍ وضاعت منها أجزاء، أخذت منها المرأة عنصر الشكل فقط، فهو موروث، دون ثمن، وأغفلت الباقي، فللحصول عليه تكاليف وثمنٌ، إذ عليها التَّخلي عن أمور تهفو إليها نفسُها، كاللغو مثلاً.

واللغو هو: لغوُ القولِ، ولغوُ العملِ، ولغوُ المشاعرِ.

وهي آفاتٌ اجتماعية مستفحِلة، يصعب على النِّساء التَّخلِّي عنها، لأنَّ التَّخلِّي يعني الإنفاق.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

لغوُ القول:

فأمَّا لغو القول: فهو النَّميمة، والغيبة، والرِّياء، والنِّفاق، والحسد، والتَّكبُّر، والتَّباهي، والكذب، والتَّنابز بالألقاب، والغمز، والسُّخرية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ

---

(١) المؤمنون: ١ ـ ١١.

(٢) آل عمران: ٩٢.

يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

هذه الصِّيغ في التَّعبير عن واقعةِ أكل المرء لحمَ أخيه يمكن أن تأخذ صيغاً أخرى أكثر قبولاً وشرعية عند بعضهنَّ.

فيمكن للمرء أحياناً أن يأكل لحم أخيه بعد أن يُضيف إليه شيئاً من التوابل والمنكهات العطرية.

ويمكن أن ترتدي النميمةُ أحياناً قناعَ الوداد، والغيرة على المصالح، وتُقرِّب النَّمامين فيما بينهم.

ويُسدِلُ الحسد نقاب التَّظلُّم بمقولة: أنا أفضل منها كيف لها هذا وليس لي مثله؟

ويتجمّل التَّكبُّر تحت مساحيق زينة اسمها: «عزة النفس».

ويُطلى الكذب بطلاءٍ سميك ناصع اسمه: «الكذبة البيضاء».

ويختبىء التباهي وراء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[2].

ويستريح النِّفاق تحت ظلال المرونة في التعامل، وضرورة مواكبة الأجواء المفروضة.

---

(١) الحجرات: ١١ ـ ١٢.

(٢) الضحى: ١١.

ويستعير التَّجسُّسُ «طاقيةَ الإخفاء» من باب «النباهة والحذر».

ويلبس الاستهزاءُ والغمزُ رداءَ المهرِّج، حتى يشيع في الجلسات والاجتماعات جوُّ الفكاهة والتسلية.

وترسم الغِيبة لمساتٍ من البراءة على قسمات المغتاب وهو يقول: «لا أدري. هكذا قيل!».

يقول الرسول ﷺ: «**لا تكونوا إمَّعَة**»[1].

ويقول ﷺ: «**إنَّ العبدَ لَيتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّنُ فيها، يزلُّ بها إلى النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب**»[2].

ويقول أيضاً: «**إن الرَّجل ليتكلَّم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً**»[3].

لغوُ العمل:

من أقواله عليه السلام: «**اغتنم خمساً قبلَ خمسٍ:**

- **حياتَك قبلَ موتِك،**
- **وصحتَك قبلَ سَقَمَك،**

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب: ٦٣، حديث: ٢٠٠٧. ج٤/٣٦٤.

(٢) متفق عليه. البخاري: كتاب الرقاق، باب: ٢٣، حديث: ٦١١٢. ج٥/٢٣٧٧.
مسلم: كتاب الزهد، باب: ٦، حديث: ٢٩٨٨. ج٤/٢٢٩٠.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب: ١٠، حديث: ٢٣١٤. ج٤/٥٥٧.
وابن ماجه: كتاب الفتن، باب: ١٢، حديث: ٣٩٧٠. ج٢/١٣١٣.

- **وفراغَك قبلَ شُغلك،**
- **وشبابَك قبلَ هَرمك،**
- **وغناكَ قبلَ فَقرك»**[1].

إنَّ بين الإنسان والوقت حرباً مستمرة لا هوادة فيها. لا يُكتب فيها الظَّفر للإنسان إلاَّ باغتنامه الخَمس الأولى قبل الخَمس الثانية. وسيُسجَّل في عداد الخاسرين إن ضاعت الأولى دون الأخيرة.

هذا الصراع الذي لا هوادة فيه، قد يغفل عنه الكثيرون، فيعلنون خسارتهم أمام الوقت، ويرفعون الراية البيضاء باستسلام، إذ أنهم في حالة ملل وفراغ، قد يُشهرون أمام الوقت أسلحةً واهية بلاستيكيةً، ذات قذائف مطاطية، ومدافعَ مائية، إنهم يصرعون الوقت باللغو، لغو العمل:

- التسكّع في الأسواق.
- مشاهدة برامج التلفاز التافهة.
- قراءة المجلات والرخصية المستوى.
- مكالمات هاتفية سرمدية.

وتأتي الآية الكريمة لتحسم المعركة، وتعلن انتصار الوقت، وخسارة الإنسان. قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[2].

---

(١) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ج٤/٣٠٦.

(٢) العصر: ١ ـ ٣.

لغو المشاعر:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[1].

ومن الطبيعي أن تكون هنالك وشائجُ قلبيةٌ وتجاذبٌ روحيٌّ عميق بين الإنسان وبينَ مَن يحب أو ما يحبُّ.

بينه وبين ما يُحِب: قد يحبُّ الإنسان مالَه، أو عملَه، أو تجارتَه، أو مسكنَه، أو زراعتَه.

وبينه وبين مَن يحبُّ: قد يحب الزوج زوجَه، أو ابنه، أو... أمَّا المرأة فقد تحبُّ ابنها أو زوجها.

والإسلام هو دين الفطرة.

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

لقد أقرَّ هذه الصِّلات الروحية، صلات المودَّة والقربى، صلات الوجدان المشدودة بعاطفة الحبِّ. وهو لا يُنكرها على الإنسان الذي خلقه اللَّهُ عز وجل، وخلق فيه هذا الميل الفطريّ، ولكن عندما تقع هذه الصلات في كفةٍ وتقع محبةُ الله في الكفَّة الأخرى، فإن رجوح الكفة الأولى يعني الشِّرك. وهو الشِّرك الخفي دون الظاهر.

لقد أَفَضتُ في رسم صورة المرأة المسلمة من زاوية اللغو،

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) الروم: ٣٠.

إذ هي أكثرُ من الرجل تعرُّضاً لهذه الحالات بحكم نزعتها الفطرية، ووضعيتها الاجتماعية، وبما تملك من أوقات فراغٍ ضائعة، قد لا تتوافر للرجل كما تتوافر لها.

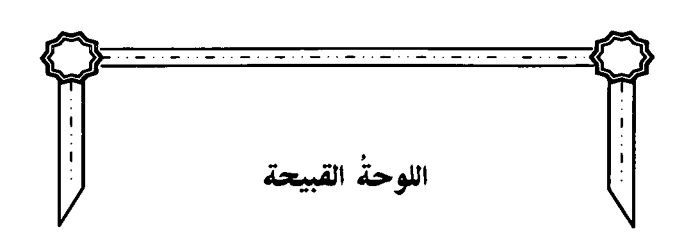
وتأتي خطوط أخرى ترسمها الآيات ١ ـ ١١ في سورة «المؤمنون» لتُكملَ لنا وصف الإنسان ـ المرأة المسلمة ـ هذه الخطوط هي:

- خشوعٌ في الصلاة.
- المحافظةُ على أوقاتها.
- أداءُ الزكاة.
- تطهيرُ النفس من نوازع الشحِّ والأَثَرة.
- ضبطُ النفس، وعدم الانسياق وراء الغرائز والشهوات، للحفاظ على طهارة الأسرة والأنساب والمجتمع.

هذه جولةٌ خاطفة كان لا بدَّ من القيام بها في رحاب «المدرسة الإسلامية»، لبناء شخصية الإنسان المسلم وتخريجه إنساناً جديراً بهذه الصفة التي يحمل.

ولنَعُد إلى المرأة.

إنَّ المرأة التي لا تأخذ من هذه العلوم في المدرسة الإسلامية إلا لباس التخرُّج، فترتدي لباس التقوى دون أن تمحوَ أمِّيَّتها، يصبحُ لباسُها الإسلاميُّ مادةً مضحكةً فعلاً، تبعث على السخرية، فهي تقدِّمُ نسخةً ناقصة وأكثرَ تشويهاً أمام الآخرين، الذين يجهلون أنَّ هنالك لوحةً أصلية، هي المرأة المحجَّبة خريجةُ مدرسة الحضارة الإسلامية فكراً، سلوكاً، وثقافة.



اللوحةُ القبيحة

التناقض والتناسق ضدَّان، فإن كان التناسق أحد أوجه الجمال، فلا بدَّ أن يكون التناقض أحد سماتِ القبح.

تعريف لباس المرأة المسلمة.

بناءً على ما سبق، نُعرِّف به فنقول:

هو لباس التقوى منذ هبوط آدم وزوجهِ إلى الأرض، حتى إعلان الدعوة الإسلامية من قِبَلِ النبي الأمِّي محمد ﷺ، دعوةً أعلنت الكمال والتمام.

وصفُه

(١) يغطِّي رأس المرأة وجسمها، فلا يَظهر إلا الوجهُ والكفَّان.

(٢) واسعٌ لا يَصِفُ.

(٣) سميكٌ لا يَشِفُّ.

وبالتالي فهو:

(٤) يمكن ألا يكون متعارضاً مع اللباس الدارج الحديث، حتى لا يبدو شاذاً أو ملفتاً للنظر.

(٥) يمكن أن يكون متمشياً مع مقتضيات العمل، حتى لا يعيق الحركة.

غايته:

(١) إثبات حالةٍ من المساواة.

(٢) المحافظةُ على الفطرة السليمة بين الرجل والمرأة.

(٣) حجب مواطن الفتنة، لإضفاء صفة الاحتشام والخشوع والتقوى.

(٤) هويةٌ للمرأة المسلمة، تدفعها إلى الارتقاء بمظهرها وسلوكها، لإعطاء فكرةٍ تليق بحمل هذه الهوية.

(٥) إضفاءُ صفة التقوى، والتقرُّبُ من الله بصفة الحجاب، إنه «لباس التقوى».

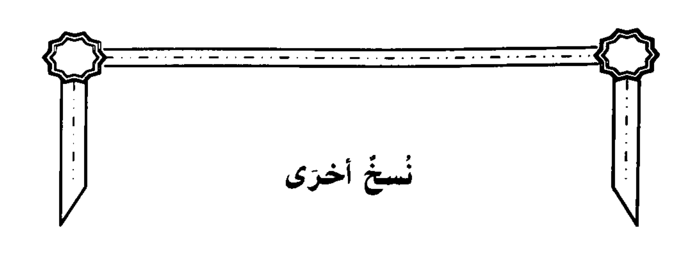
وعندما يتعارض الوصفُ والغاية، فلا يحجب الحجابُ مواطنَ الفتنة مثلاً... عندها تبرز مشكلةٌ، إذ يُفقَد التناسق ويَبرزُ التناقض، ويصبح القبحُ طابعاً للوحة المسكينة.

- إنَّ أوجه التناقض متعددة:
- التبرُّج: طلاءُ الوجه بمساحيق زينة فاقعة.
- طلاءُ الوجه بمساحيق زينة فاقعة.
- بنطالٌ ضيق.
- تنورةٌ ذات فتحة عالية.
- غرَّةٌ الشعر تغطِّي الجبهة.

● طاقيةٌ لا تفيد في ستر الجيب «العنق».

استناداً إلى مقاييس الجمال. تبدو هذه النسخة بعيدةً عنها كلَّ البعد، وتضيف إلى سابقاتها نسخةً مشوهة، لا تنتمي إلى اللوحة الأولى المتناسقة الجميلة، بانسجامها الرائع بين الوصف والغاية.





نُسخٌ أخرَى

كأيِّ عمليةِ طباعة، لا بُدَّ أن تَصدر عن آلة العمل نسخٌ ليست طبق الأصل. وهنالك العديد منها، التي لا يمكن إحصاء عددها، أو جلاءُ كيفية اختلافها عن النسخة الأصلية، وقد تنجح إحدى هذه النسخ في الفرار، فلا تكون مسروقةً، أو خالية، أو ناقصة، أو قبيحة، أو أنها لوحة مهملة في جناح الحريم، فتهجرُ بعض النساء عتمة الحريم كي تمارس قليلاً من نشاطات مهنية أو علمية أو. . . وتفر بعضهنَّ من قائمة المسروقات فلا نستطيع أن نضمها إلى زمرة اللوحة المسروقة، إذ أنَّ صاحبها قائم، راكع ساجد، يبارك لباس التقوى ويحثُّ عليه، فهو مستثنى أيضاً من لائحة اللوحة الخالية.

كذلك قد يكون من الإجحاف أن نضعَ صورة المرأة في سياق اللوحة الناقصة، فقد تكون ذات خلق وعلم وأدب. . . وذات لباس محتشم يعلن تناسقاً بين الوصف والغاية.

✡ ✡ ✡

إنه ليس لباس التقوى
رغم استيفائه للشروط ظاهراً.

ولكن لِمَ، يا ترى، لا نستطيع أن نجعل من هذه النسخة

غلافاً لكتاب يحمل اسم «لباس المرأة المسلمة»، أو آخر يحمل اسم «لباس التقوى».

إننا نسقط هنا في شرَك الحَيرة والأسف، فالنسخة الصادرة عن آلة الطباعة مستوفية الشروط حقاً ولكن في بعض البلدان الإسلامية، وباعتبار أنَّ معظمها يقع في المنطقة الحارة، كثيراً ما تُشاهد ظاهرةٌ تسترعي الانتباه:

يتبختر أحدهم مرتدياً «الشورت الشرعي» الذي لا غبار عليه كمقاييس تغطي العورة، فيتمشَّى في الأسواق محدِّقاً فيما يحيط به من نساء سافرات أجنبيات... وإذا شئنا التفاؤل: قد يغض من بصره، ولكن لا بأس من أن يتجاوز النظرة الأولى، التي هي له، إلى ثانية وإن كانت عليه! بينما تتعثَّر زوجته في عباءتها الفضفاضة وهي تحاول جاهدة اللحاق به، إما لبدانتها، أو لأنها تحمل طفلاً وتجرُّ آخر. أو لأنها تنتظر مولوداً يعيق حركتها.

هنالك الكثير من الأمثلة التي ترى في الجوامع، في الشوارع، في الأسواق. أمثلةٌ لا يوجد نص شرعي مباشِر يعتمد على القرآن والسنة يحاصرُها، لأنها في الحقيقة لا تمسُّ الشرع ولا تتجاوز حدود المحظورات في الشريعة الإسلامية، ولكنها تبقى بعيدةً عن الأناقة والجمال، فلا تستسيغها النفس ولا تطيب لها العين.

فما هو الحلُّ؟

لقد تكلَّمتُ في كتابي السابق عن الباب الذي دخلت منه إلى عالم الإسلام، وهو «باب الحبِّ».

وعن نافذة أطللتُ منها على دنيا الإسلام، وأسميتها «نافذة الجمال».

وقلتُ: إن كان حبِّيَ للإسلام قد تحقق كشرط أول، فلا تزال أمامي مسؤوليةُ تحقيق الشرط الثاني، وهو أن أجعلَ من هذا الحبِّ حقيقةً جميلة.

وفي اعتقادي أنَّه ما مِن دواءٍ أنجعُ من الحبِّ أمام داءِ التفلُّت مِن تعليمات الشريعة الإسلامية وسنةِ النبي ﷺ في تعامله مع نسائه.

حبُّ الانتماء للإسلام هو الدواء الوحيد الذي يستنهض بنا، ويحثُّنا على الظهور بأكمل وأجمل صورة.

وإذا قارنَّا الصورة الأولى التي عرضتُها مع صور كثيرة قدمتها لنا السيرة النبوية، سنرى أنَّ المسافة شاسعةٌ، الهوةَ سحيقةُ القرار بينهما.

● عن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عرس، فقام النبي ﷺ فقال: «**اللهمَّ أنتمِ من أحبِّ الناس إليَّ**». قالها ثلاث مرات[1].

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: وكانَ يومُ عيد يلعب فيه السودان بالدُّرَق والحراب، فإمَّا سألتُ النبي ﷺ، وإمَّا قال:

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب النكاح، باب: ٧٥، حديث: ٤٨٨٥. ج٥/١٩٨٥.
ومسلم: كتاب الفضائل ٤٤، باب: ٤٣، حديث: ٢٥٠٨. ج٤/١٩٤٨.

«**تشتهين تنظرين؟**». قلت: نعم. فأقامني وراءه خدي على خده، وهو يقول: «**دونكم يا بَنِي أرفِدَة**».

حتى إذا مللتُ قال: «**حسبُك؟**». قلت: نعم. قال: «**فاذهبي**»[1].

● عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: «**فاطمةُ بَضعَةٌ مني، فمَن أغضبها أغضبني**»[2].

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: ... فأقبلت فاطمةُ.. فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «**مرحباً بابنتي**». ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله[3].

● عن أبي قتادة الأنصاري، أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حاملٌ أمامةَ بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجدَ وضعَها، وإذا قام حمَلها[4].

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب العيدين، باب: ٢، حديث: ٩٠٧. ج١/٣٢٣.
مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب: ٤، حديث: ٨٩٢. ج٢/٦٠٩.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفضائل ٦٦/، باب: ١٢، حديث: ٣٥١٠. ج٣/١٣٦١.

(٣) متفق عليه. البخاري: كتاب المناقب، باب: ٢٢، حديث: ٣٤٢٦. ج٣/١٣٢٦.
مسلم: كتاب الفضائل، باب: ١٥، حديث: ٢٤٥٠. ج٤/١٩٠٥.

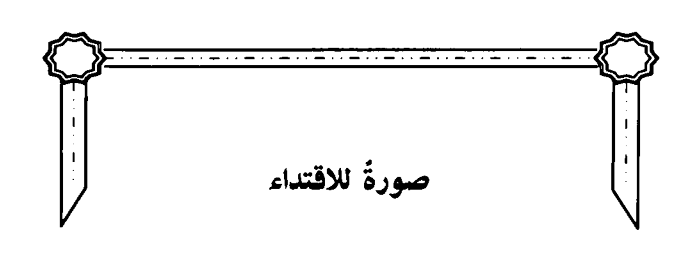
(٤) متفق عليه. البخاري: كتاب أبواب سترة المصلي، باب: ١٦، حديث: ٤٩٤. ج١/١٩٣.

• عن أبي الطفيل قال: رأيت النبيَّ ﷺ يَقسم لحماً بالجُعرَّانة، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبيِّ ﷺ، فبسط لها رداءه فجلست عليه. فقلتُ: من هي؟ قالوا: هي أمُّه التي أرضعته[1].

إنَّها لمحاتٌ شفافةٌ لأدب الرسول ﷺ الراقي في تعامله مع النساء والأطفال، وما هذا الهدي من رسول الله ﷺ إلا لمساتٌ رقيقةٌ ابدعتها السيرةُ النبويةُ لتضفيَ سمة النبلِ والرِّقة على قسَمات اللوحة. فيبدو لنا الإنسان المسلم متميزاً أَنيقاً، تنفتح له قلوب مَن حوله، وتهفو النفوسُ إلى صحبته والتعرُّف إليه والاقتداء به.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، حديث: ٥١٤٤. ج٤/٣٣٧.



صورةٌ للاقتداء

إنَّ تكدُّسَ آلافِ النُّسخ المشوَّهة أضاعَ على الكثيرين إمكانيةَ رؤيةِ اللوحةِ الأصلية، وإن كانت كتبُ التاريخ تزخرُ بالمئات من النسخ السليمة الصحيحة «صورة طبق الأصل»، التي يمكن الاقتداء بها، فإنِّي أرى ألا نلجأ إلى الماضي فقط لنستقي منه أمثلتنا رغم مصداقيتها، لأنَّ الحاضر، كذلك، لا يخلو من نسخ حيَّةٍ رائعة، يمكن أن نتأمَّلها قدوةً للمرأة العصرية المسلمة.

صديقتي المهندسة «نجوى عثمان» انعكاسٌ حقيقي للوحة الحجاب الأصلية وهناك كثيرات غيرها في بلدي، على الأقل:

مهندسات، طبيبات، قانونيات، مدرِّسات لامعات يستحققن جميعاً الاحترام والثناء والتقدير.

حازت نجوى عثمان على دبلوم الهندسة الإنشائية بتقدير جيد جداً.

ودبلوماً من معهد التراث العلمي العربي، في حلب، بتقدير جيد جداً.

ودرجة الماجستير في التراث العلمي العربي، تاريخ العلوم التطبيقية، بتقدير شرف، وكان موضوع رسالتها «الهندسة الإنشائية

في مساجد حلب» وقد اتخذت جامعة حلب قراراً بطباعتها، كأول رسالة تطبع في معهد التراث. وهي تحضِّر حالياً رسالتها لنيل الدكتوراه في تاريخ العلوم التطبيقية، تحت عنوان «دراسة هندسية مقارنة بين مساجد حلب ومساجد القيروان».

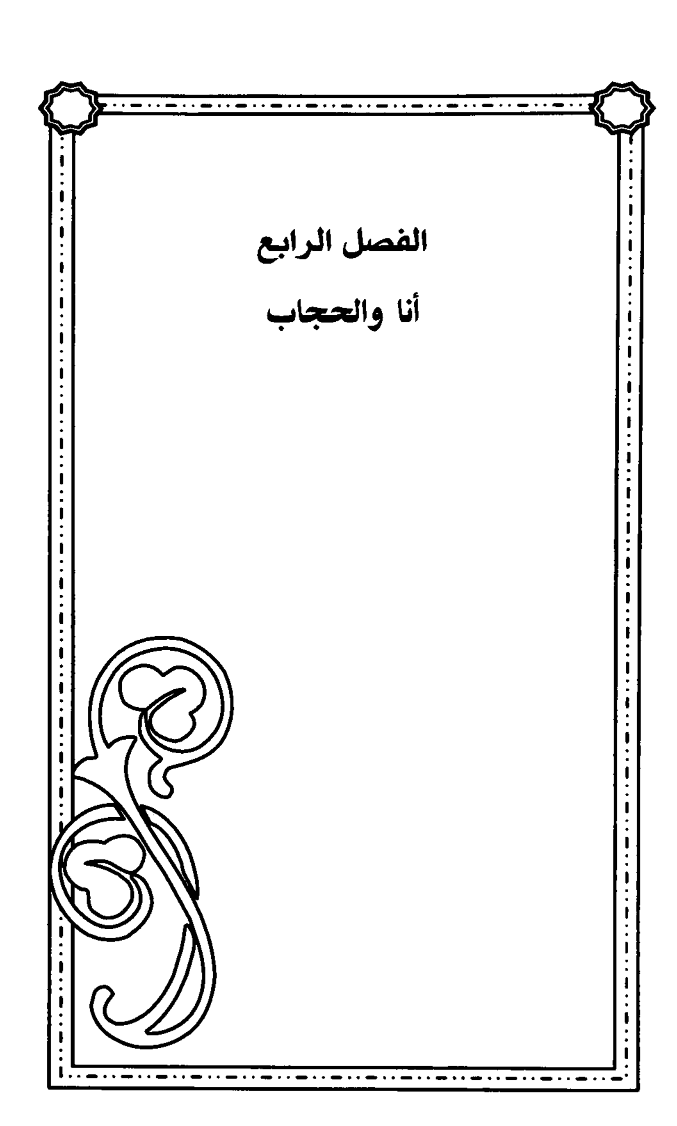
وذلك بعد أن أقامت في تونس مدة عام كامل، قامت خلاله بدراسة ميدانية لجميع مساجد وزوايا القيروان، وأخذت مقاييسها، مع دراسة تاريخية للمخطوطات والكتب المتعلقة بالموضوع[١].

كان حضورُ المهندسة نجوى بلباسها الإسلامي، مستوفِي العناصرِ من تناسق كامل بين الوصفِ والغاية، مثلاً حياً وتحقيقاً فعلياً لَمساواة المرأة بالرجل. إذ إنَّ أيَّ مظهرٍ للزينة، أو الفتنة، سيعزز حصولَ المرأةِ على درجةٍ علميةٍ قد لا تستحقها، مما سيُشعِرُ الرجلَ بالظلم، ويؤدي إلى أن يُبخَسَ حقُّه في ذلك، لعدم امتلاكه مقوِّمات الفتنة التي تملكها المرأةُ.



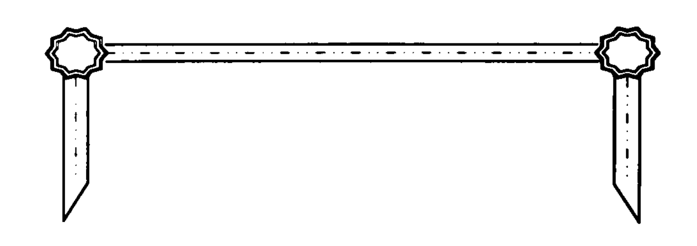
---

(١) تمَّت مناقشة أطروحتها يوم ٣٠/أيار/١٩٩٨ في معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، وحازت بها درجة الدكتوراة في تاريخ العلوم التطبيقية عند العرب.



الفصل الرابع

أنا والحجاب



سألني أحدُهم: هل لكِ أن تُلَخِّصي في جملةٍ أو جملتين، لماذا تحجبتِ؟ أجبتُ: لقد أحببتُ الله، وأحببتُ أن أرتديَ ما يُحبُّ.

دينُ الفطرة:

إنَّ الدينَ الإسلاميَّ دينُ الفطرة، كما سبق وقلت، وإن أعطى للعقل قيمةً عظيمة، كانت المنارةَ الأولى في رحلة النقد، التي طفنا فيها بين أمواج المدِّ والجزر، بين أصوات المعارضة، وهتافات المطبِّقين.

هذا الدين لم يغفل دورَ القلبِ، القلب وما يشعر؛ العاطفة، وما تصبو له من مكانة في التصور الإسلامي.

وإنني، ولا أخفي على القارىء، أعترف أنَّ للقلب في كياني صوتاً مسموعاً أصغي إليه، لم أستطع تجاهله يوماً. كيف وقد كان دليلي الأول، يقود خطواتي المسافرة بين الفيافي والقفار، بين الحقول والجبال.

ثم قادَ خطاي المتعثِّرة في القرب، ثم التقرُّبِ من الله. إلى أن ابتدأت رحلة الجهاد لأتَّخذ لنفسي مقعدَ الاعتدال في الساحة الإسلامية.



رحلةُ القُرب

إنَّ رحلةَ القرب قديمةٌ ابتدأتها منذ أن أخذتِ الأشياءُ مسمَّياتها عندي، فعرفتُ الله في الزهرة الفوَّاحة، في الفراشة الحيرى، في قلب الرَّمانة الوردي، في دبيب النملة الوئيد.

عرفتُ الله في الليل الساجي، والطير الشادي، في شفافيةِ الغسق، ووَضَاءة البدر، في همسات الأشجار، وأنين الرياح، وثرثرة الجداول.

عرفتُ عظَمة الخالق مِن عظمة خَلقه، وتذوَّقتُ للجمال طعماً سائغاً.

وأحببتُ أن أشكرَ... فإذا بالشكر يوقظ العرفان، وإذ بالعرفان يُضرم الحب... وافقت فإذا الحبُّ أفقٌ فسيح مترامي الأطراف.

صحوتُ فجأة منذ سنوات، ووجدتُ أني تائهةٌ في هذا الأفق البعيد... إنه أفقٌ وضَّاء بهيٌّ ساطع. ولكنَّ رحابَهُ كانت أوسعَ مِن أن أستطيع الإلمام بها والإحاطةَ بحدودها وأبعادها. ووقفت حائرةً مضطربة؛ من أين أبدأ؟ وكيف؟ وقلت لنفسي: للحبِّ تكاليفُ والتزاماتٌ كي أفوز برضا المحبوب.

وتلمَّست طريقاً للرضى في كتاب الله، ومع أنَّني كثيراً ما قرأتُه، إلاّ أنّي فوجئتُ بكثيرٍ ممَّا لم أفهم، أو كأنني لم أقرأ مِن قبل، فلجأتُ إلى كتب التفسير وآراء الباحثين، والمؤرِّخين، والمتفقِّهين، والناصحين... عدوتُ بين السطور، وارتحت قليلاً أمام القوافي والألفاظ والمعاني.

استوقفتني آراءٌ متضاربة، وأفكارٌ مستجدة، وأخرى معارضة، ووجدتني ظمأى إلى الحقيقة... إلى أن قرأتُ قول رسول الله ﷺ: «**استفتِ قلبَك... وإن أفتاك الناسُ وأفتَوك**»[1].

آهٍ! إذاً هذا القلبُ الذي طالما استمعتُ إليه... له قيمةٌ في الإفتاء، وبرأيٍ مِن حبيبِ الله يزكي هذا الصوتَ ويعززه ويقوِّيه.

۞ ۞ ۞

عرفتُ الله في قلبي

ولكن أيَّ قلب هذا الذي ينبغي لنا أن نسأل ونستفتي؟ أهو قلبٌ علاه الصدأ، واكتنَفه الغبارُ، وأوصدَ على محبَّةِ الدنيا، ونوازِعِها، ومشاحناتها، وأحقادها، وأطماعها، وشهواتها، وتفاهاتها، وأهوائها... قلب لا مكانَ فيه إلا لحبِّ المالِ... العملِ... النجاح... الأولاد... قد رَجحت فيه محبةُ هؤلاء على محبةِ الله؟ أم هو قلب كهذا الذي ينبغي أن يُسأل:

عاش مجاهداً للمعرفة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2].

عاش ذاكراً: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[3].

عاش راجياً: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾[4].

(١) أخرجه أحمد والدارمي: كتاب البيوع، ج٢/٢٤٦.
(٢) العنكبوت: ٦٩.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) الشعراء: ٨٩.

عاش ساعياً: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

عاش خاشعاً: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[2].

عاش مُتيقظاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[3].

عاش متفكراً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[4].

وأخيراً وجدتُ الرضى، ونلتُ الجزاء:

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[5].

☼ ☼ ☼

وحلمتُ ذات ليلة

بيني وبينَ لوحة التقوى علاقةُ ودٌّ خاصة، وغريبةٌ بعض الشيء، كنت أتأمَّلها مليّاً في معرض الحضارة الإسلامية، وأعجبُ بها، وأقنعُ بقيمتها وفائدتها، ولكنها، ولكنها كانت أغلى مِن أن أستطيع الإنفاق للحصول عليها فالإنفاق يعني أن أتخلَّى عن مظهري، وانتقل إلى شكل آخر لن أعتاد عليه بسهولة، ولن يعتادَ الآخرون عليه. وسيرون تناقضاً بينه وبين فناة تقيمُ المعارضَ

(١) التغابن: ١١.
(٢) ق: ٣٣.
(٣) ق: ٣٧.
(٤) الحج: ٤٦.
(٥) الحجرات: ٧.

في بلاد غربية، قد لا تتقبَّل المظاهر الإسلامية بسهولة، ولا تستسيغ ملابسَ القرب من الله.

وحدثَ ذات ليلة أن رأيتُ فيما يرى النائم:

أنني أمشي وحيدةً في أحد شوارعِ حلبَ الرئيسية، ساحةِ باب الفرج، كنتُ ما أزال وقتها أسكنُ في دمشق، فإذا أنا أمام صديقةٍ لي، لم أرَها مذ كنتُ في الإعدادية، كانت وقتها، أسوةً بي وباقي الفتيات، لا تضع حجاباً، فإذا هي ترتدي جلباباً أسودَ سابغاً، وتضع على رأسها غطاءً أسودَ يحيط بوجهها المشرقِ الوضَّاء.

وهتفتُ قائلة: عائشة! أراكِ قد تحجَّبت!... وأسرعتُ لمصافحتها، مهنئةً إياها على هذه الخطوة الجبَّارة، في رأيي، فإذا بيدي اليمنى مطبقةٌ على قطعة نقدية من فئة الليرة الواحدة. وبيدي اليسرى أحملُ القرآنَ الكريم.

صافحتُها، ولكنَّ يدي ظلَّت مطبقةً بقوة على الليرة الفضية، ولما غادرتُها شعرتُ بحسرة مريرة، وندم مبرح يصرخ بي: لماذا لم تبسطي إليها يدك، معبرةً لها عن سعادتك بلقائها؟

لماذا لم ترم هذه الليرة الحقيرة التافهة؟ ترى لو أعطيتِ هذه الليرة، لمتسولَ ألن يهزأ بها؟

وشعرتُ بالدموع السَّاخنة تترقرق، وتفيض من عيني ندماً. ولكنَّها هتفت بي قائلةً، ضاحكمة مستبشرة:

ناديا!... لا تحزني، أنا واثقةٌ أنك ستعودين لي ذات يوم، إنَّني أنتظرك هٰهنا وأفقتُ وطعمُ الدمع المالح في حلقي...

وجلستُ هنيهات أتفكَّر في هذا الحلم الغريب، وقفزت إلى ذهني فكرةٌ وخزتني كدبوس حادٍّ مزعج.

آهِ! كتابي بيساري، والدنيا في يميني يا للهول! هذه الدنيا التافهةُ مازلتُ أقبضُ عليها بيميني.

وتساءلتُ: أيمنُّ الله عليَّ بنعمةٍ عظيمة، فيريني كتابي بيساري لأتدارك الوقت؟ أيمنُّ الله عليَّ بأن أرى الحق حقاً فأتَّبعه، وأرى الباطل باطلاً فأجتنبَه قبل فوات الأوان؟ وأين منزلتي بينهما؟

ولكن، وفي ذلك الوقت، كنت فقيرةً في استعدادتي، في قناعاتي، وفي إمكانياتي لشراء اللوحة. فأعرضتُ وقلت لنفسي بعد أيام: أضغاثُ أحلام!



ثمَّ قررت أن أدفع ثمنَ اللوحة مهما كان

ومرَّت سنوات، وأنا أسترقُ النظرَ إلى اللوحةِ، معجبةً بها، متحسرةً على ثمنها، إنه باهظٌ... وأنا ما زلت لا أملكه.

كيف سأُفسد راحتي، وأُقلقُ معيشتي، وأستبدلُ بلباس القرب من الناس لباساً آخرَ؟ إنني معتادةٌ هكذا، ومرتاحة...

لا. لا أستطيع القول أبداً أنني كنت مرتاحة، لأنني كنت أعرف الحقَّ وأعرض عنه وبدأت أحسدُ فعلاً من تلقَّت هذه اللوحة كإرث، فهي على الأقل في غني عن هذا العناء، وهذا الصراع الذي أكابده.

عندما كنتُ أعتكف في أواخر شهر رمضان، فأصلّي وأتعبَّد ربي في ليلة القدر، ثم أخرج من الجامع لأخلعَ لباس التقوى، وأعودَ إلى سابق عهدي، كنتُ أشعر أنني أسبح في بركة من النفاق.

عندما كنت أسمع بوفاة شخص ما، قريبٍ، أو عزيز، أو صغير السن، كنت أعرف أنني أخوض مع الوقت معركة خاسرة.

وصادفَ أن عدتُ إلى حلبَ من جديد، لأقطن فيها بعد غياب دام ثماني سنوات، وأطلَّ شهر رمضان، في الوقت الذي كانت فيه سبل الهداية قد بدأت تتضحُ أمامي شيئاً فشيئاً، وقررتُ أن أجعل من لباس التقوى لباساً دائماً.

في اليوم الأول أرتديتُ قبعةً أنيقةَ مخمليةً سوداء، وقلتُ لنفسي: لا بأس، هي مرحلةٌ انتقاليةٌ بين لباس التقوى ولباس الموضة، حتى لا أتعرَّضَ منَ الآخرين لانتقاداتِ لاذعةِ أنا في غنىً عنها، فأنا ما زلتُ أقيمُ وزناً لآراء الناس.



لقد أصبحت غنيَّة إنَّني أستطيع الإنفاق

وفي ذات الليلةِ حلمتُ حلماً آخر:

رأيتُني أمشي في مكانٍ ما، مجهول، معتمرةً هذه القبعة، وفيما كنتُ أسير انزلقتُ على ظهري، ووقعتُ أرضاً فلامستِ النارُ قبعتي الجميلةَ فأحرقتها، وسمعتُ مَن يقول: لا بأس... لا عليك، لم يُصبك أيُّ أذى، لقد احترقتِ القبعةُ فقط، خذي غيرها.

والتمستُ غطاءً عادياً، أحاطَ برأسي وعنقي... وأفقتُ، وشعرتُ أنني غنيةٌ أكثرَ من أيِّ وقت آخر... إنني أستطيع الإنفاق... إنني أملك ثمنَ اللوحة الآن واقتنيتُها. قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(٢).

لقد أنفقتُ، ولكنَّ المكاسبَ كانت أكثر مما توقعتُ، فما كان لي زينةً أصبح سراباً غابراً، وما اعتدتُّ عليه مظهراً للمرأة العصرية، وارتحتُ إليه فيما مضى، أضحى غربةً للنفس والروح، وباتَ القلبُ في خواء أجوف، فالتناقض بين الظاهر والباطن، بين الانتماء والواقع، يُشيع في النفس اضطراباً وفوضى. إنَّ إظهارَ حقيقةِ الانتماء تعطي للشخصية وضوحاً مريحاً، ليس فقط للمرء ذاتِه، وإنما لمن يحيط به.



ناديا، لَم تضعين هذا الغطاء على رأسك؟

سألني ذات يوم أستاذي في جامعة «تورنتو» في الدرس الأخير، ويبدو أنه قد أطمأنَّ إلى أنني لا أحمل أيَّ مظهر مِن مظاهر العنف، بالرغم مِن أنني مسلمةٌ ملتزمة بلباس الإسلام قال:

---

(١) البقرة: ٢٧٢.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

ناديا، لَم تضعين هذا الغطاء على رأسك. هل لأنك تنتمين إلى الشريعة الإسلامية؟ أجبتُ: هذا الغطاء ليس من الأمور الأساسية التي يرتكز عليها الدين الإسلامي، هنالك الكثير من الأمور الجوهرية التي تستحقُّ التحدُّثَ عنها إلى شخص مثلك، لا يعرف شيئاً عن هذا الدين، ولكن أحبُّ أن أقول لك:

إذا قابلتَ أي شخص كان، ووجدتَ أنه مُنتم لمذهب ما، مِن ألفه إلى يائه، دون تطرف، فإنَّ هذا الشخصَ لا بدَّ وأنه يحمل الإخلاصَ والصدق في سريرته، فكيف لمن كان ينتمي إلى شريعة لا تحضُّ إلا على مكارم الأخلاق، والتسامح، والكرم، وخير الإنسان عاجلهِ وآجلهِ.

☼ ☼ ☼

هل ترتدينه أثناء النوم أيضاً؟

أثناء إقامتي في كندا كنت أتعرَّض للكثير منَ التساؤلات عن لباس:

ما هو؟

أو: لِمَ هو؟

أو: ألستِ متضايقةً منه، والطقس حارٌ، ودرجةُ الرطوبة عالية؟

سألتني ذات مرة فتاةٌ يابانية: هل أرتدي غطاء الرأس أثناء النوم أيضاً؟ الحقيقةُ أنَّ هذه التساؤلات كلُّها دفعتني إلى البحث والتقصِّي عن الحكمة مِن لباس الإسلام، فالشريعةُ الإسلامية

شريعةٌ تُفرد للعقل مكاناً عظيماً، بل وتحثُّنا دائماً على البحث عن الحكمة مِن أحكامها، فحين يمتلىء العقل قناعةً تنساق الجوارحُ وراءَه مطيعةً راضيةً، دون تلكؤ، ويتمُّ التناسق والتكامل بين السلوك والمظهر من جهة، والقناعات الذاتية الكامنة من جهة أخرى.

ويزداد التناسق طرداً مع إمكانية ارتقاء المسلم منابرَ الدعوة الدينية، واعتلائِه مكانةَ القدوة الحسنة، ممَّا يحثُّ الآخرينَ على الانضمام إلى موكِب صاحبها.

الحقيبةُ الضائعة:

تحدثت في فصل «الحكمُ على اللوحة، رأي الناقد»، عن صفات الداعية ولديَّ في جعبتي، في هذا المضمار، قصةٌ قصيرة من أرشيف ذكرياتي في «تورنتو» في كندا.

في صيف عام /١٩٩٥/ أقمتُ في هذه المدينة مدةَ شهرين، بصبحة ابنتيَّ: عليا «أربعةَ عشر عاماً»، وسلمى «خمسة أعوام».

في أحد أيام العطلة الأسبوعية عزمنَا، نحن الثلاثة، على الذهاب إلى سوق كبير (Mall) يبعدُ عن مكان إقامتنا حوالي مئة كيلو متر، ناشدين التسليةَ والتسوق.

في المحطة أحتشد عددٌ لا بأس به من الناس في انتظار الباص الذي سينقلنا إلى ذاك السوق.

لم يكن في المحطة سوى مقعدٍ حجري صغير، لا يتسع إلا لشخصين، جلستُ عليه أنا وابنتي الصغيرة سلمى، عندما

أتت سيدةٌ في العقد الخامس من عمرها، لم أتردَّد فطلبتُ من سلمى أن تجلسَ في حجري، وأفسحتُ مكانها للسيدة، فجلست بقربي والدهشةُ تفيض من عينيها، وهي تتمتُم بعبارات الشكر والامتنان، فهذه البادرةُ، على بساطتها، لها شأنها في بلادٍ لا وجود فيها لمثل هذه الاعتبارات. مثلاً: لا وجود لرجل يقدِّم مكانه لسيدة، ما دامت المرأةُ تنشد المساواةَ بالرجل فلتقف مثله، وكثيراً ما رأيتُ شباباً لا يُفسحون أماكنهم لسيِّدات مسنَّات، ومَن أتى أولاً فله حقُّ الجلوس، دون أيِّ اعتبار للجنس أو السِّن.

كان الطريق طويلاً، ولم تفتأ السيدة خلاله عن اختلاس نظرات مستغربة.

إنسانةٌ مسلمة، واضحة الهوية بلباسها، تقدم لها مقعداً! إنسانة تنتمي إلى الدين الذي وسم بالعنف والإرهاب والهمجية، هل يمكن أن تمتلك قدراً ضئيلاً من الذوق يجعلها تقدم مكانَ طفلتها لشخص غير مسلم.

كبحتُ ابتسامتي أمام نظراتِها، فيما كنتُ أحدِّق في سماء تورنتو الصافية من نافذة الباص، وأهمس:

اللَّهمَّ إن كنتُ قد فعلتُ هذا لقاء وجهك، فتقبَّل مني عملي هذا.

دعوةٌ بسيطة، همسةٌ خافتة، ومضةٌ ضئيلة في سماء هذا الدين الذي أحمل هويته وصلنا السوق ظهراً، وكان مكتظاً، كالعادة أيام العطل، مكثنا فيه بضعَ ساعات، انتقينا بعض الملابس، والهدايا، والحاجات، وكنا نحشرُ المشتريات كلّها في

حقيبة سوداء، متوسطة الحج ذات عجلات، كنتُ قد اصطحبتُها معي صباحاً خصيصاً لهذا الغرض، فالسوقُ واسع، والمغرِيات كثيرة، والعودةُ آخر اليوم مع أكياس متفرقة ورطةٌ كبيرة.

قبيل إغلاق السوق بحوالي الساعة، كان الجوعُ قد أخذ من سلمى الصغيرة مأخذه، فسعينا إلى ساحةُ الطعام، وهي ساحةٌ كبيرة تتوزع فيها الأكشاك المعتمدة على الخدمة الذاتية، والتي تبيع مختلفَ أنواع الأطعمة، صيني وعربي ومكسيكي...، وقفتُ أنتظر في خط طويل، بعد أن حددت الطلب للبائعة ذات الأصل الكوري: ثلاث وجبات دجاج، وكأسين من الكولا من فضلك، حملتُ الطعام ناسيةً الحقيبة ذات العجلات، ومضيتُ إلى حيث رُصَّت المقاعد والطاولات، فتهالكتُ على أول مقعد صادفتُه، وجلسنا نحن الثلاثة نتناول طعام الغداء.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً عندما علت صافرات الشرطة تعلن إغلاق السوق، وتدعو الزبائن إلى الانصراف.

صاحت عليا: ماما. أين الحقيقة؟ هل كانت معي أم معك؟

بين سؤالي وسؤالها، علمت أننا قد أضعنا الحقيقة بما تحوي.

في رحلة العودة خيمَ علينا وجومٌ مطبق، حتى سلمى الصغيرة عزفت عن تناول كيس البطاطا، فأطبقت عليه كفَّها الصغيرة، وهي نائمة في حجري. في الليل، وعندما هجعتُ في فراشي جاءني هاتفٌ سماوي:

إنَّ الله قد تقبلَ منك صنيعك مع السيدة الكندية، وستجدين الحقيبة.

في اليوم التالي، الإثنين، صحونا باكراً، وأخذنا طريقنا الاعتيادي نحو الجامعة، جامعة تورنتو، حيث لكلٍ منا نحن الثلاثة صفٌ نتلقى فيه برامج باللغة الإنكليزية، تتناسب مع العمر ودرجة الثقافة.

غادرتني عليا عند باب الجامعة كعادتها، ثم مضيتُ مع سلمى إلى جناح الأطفال، وما إن غابت عن نظري مع معلمتها، حتى تسللتُ وعدت أدراجي، واستقلَّت «المترو» متوجهةً إلى محطة الباص، الذي سيقلني بدوره إلى السوق. كان الوقت ما زال مبكراً، والساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، الباعةُ ما يزالون منهكين في تنظيف حوانيتهم.

مررت بهم جميعاً، وحكيت لهم قصتي عسى أن أكون قد نسيت الحقيبة في إحدى الحوانيت، شاركني البعض آسفاً، ولوَّح البعض يائساً، ونصحني سواهم بتقديم الشكوى إلى مكتب المفقودات.

في نهاية المطاف، وصلتُ ساحةَ الطعام، وجلست في مقعد الأمس ذاته، أنتظر البائعة الكورية أن تفتح نافذة الكشك، وما إن لاح وجهها وراء الزجاج حتى هرعت إليها، وسألتها عن الحقيبة الضائعة.

أبدت دهشةً عارمة، وأجابت على الفور: إن الكشك له حاجزٌ عال بعض الشيء، يمنعها من رؤية حقيبة تُجرُ على الأرض. وأضافت: لو أنها كانت حقيبة يد ووضعتِها على المصطبة، فلربما رأيتها واحتفظتُ بها.

وأعربت عن عميق أسفها، خاصة وأن وقت البارحة كان غير مناسب البتة، ففي الوقت الذي ضاعت فيه الحقيبة، كانت آلاف من الجحافل البشرية تغادر المكان، ولا بدَّ أن أحدهم قد أخذها.

تلكأت قليلاً قبل أن أنصرف، في الوقت الذي بزعت فيه من الداخل سيدةٌ مسنة، وبدأت الاثنتان تتكلمان اللغة الكورية، طلعت بارقةُ أمل، ثم التفتت إلي المرأة المسنة قائلة: صفي لي حقيبتك، وما بداخلها. ولما فعلتُ، انطلقت إلى الداخل، ثم عادت وهي تجرُّ الحقيبة. لم أصدق ما أرى أعطيتُها مكافأة سخية لأمانتها، وابتسمت لي شاكرة وهي تقول: صدقيني، يمرُّ بدكاني يومياً آلاف من البشر، لا أدري ما الذي دفعني إلى أن أطلَّ من شباك الكشك في اللحظة التي بارحتِ فيها المكان، ورأيتُ الحقيبة، فخرجتُ واحتفظت بها، عسى أن تعودي لأخذها.

أما أنا فقد كنت أعرف تماماً من الذي دفعها لذلك.

ناولتني الحقيبة، وطلبت مني أن أفتحها كي أطمئنَّ على سلامة الحاجات كلها، ولما غادرتُها متجهةً إلى بوابة الخروج، اغرورقت عيناي بالدمع وأنا أتمم حديث الرسول ﷺ:

«. . . أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنَّه يراكَ»[1].

☼ ☼ ☼

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب: ٣٦، حديث: ٥٠. ج١/٢٧.
مسلم: كتاب الإيمان، باب: ١، حديث: ٩. ج١/٣٩.

من باب الحبِّ

هنالك تعليقٌ بسيط على هذه القصة.

إنني لا أودُّ أن يفهم أحدهم من خلالها أنني قمتُ بهذا المعروف المتواضع مع السيدة الكندية لأنني أنتمي إلى فئة صاحبات اللباس الإسلامي، دون أيِّ اعتبار آخر فكثيراً ما قمت في حياتي، وربما في مواقف أكثر حرجاً وصعوبة، من هذا الموقف، وكنت لا أتوانى عن تقديم أيِّ معونة أو معروف لمن هم بحاجة. ولكني بعد أن أطللتُ على الشريعة الإسلامية من نافذة الجمال، ووقفتُ أتأمَّل هذا الكون البديع لاصنع، المتكامل التكوين، عزمتُ أن أدخل رحاب هذه الشريعة من باب جميل، هو باب الحبِّ.

وقد تكون لهذا الرحاب أبوابٌ شتى، فمنهم مَن يلج إليها من باب الرهبة والخوف، وبعضهم من باب التوبة والرجاء، وآخرون من باب الابتلاء والشدة ولكنني رأيت أن صفة الحب للخالق تحمل هذه المشاهر كلها، فالمحب يخاف من غضب مَن يحب ويرجو رضاه، ولا يدع وسيلة تفوت دون التعبير عن ذلك الحب وإعلانه، وهكذا كان صنيعي المتواضع مع السيدة الكندية بادرة تقرب إلى مَن أحب... إلى خالقي.

في مجال الحجاب الذي نحن بصدده... وفيما مضى، وعندما كنت أسعى لتقديم العون للآخرين، بدافع من تربية أسرية تحض على الأدب والذوق والتضحية، كان أي صنيع مني يضيع

في الزحام البشري المتعدد الأجناس والمذاهب والانتماءات ولكن بعد أن أعلنت هويتي، أصبحت أيَّة بادرة قرب مني لله عز وجل تدخلُ في رصيد الانتماء، وتفسح المجال لتعاليم الدين الإسلامي ألاَّ تبقى سجينة الكتب والمجلات، وتسلط ضوء، حتى ولو كان ضئيلاً، على لوحة لباس المرأة المسلمة. وهذه هي مسؤولية الانتماء التي تكلمت عنها في البدء. وإن تسليط الكثير من هذه الأضواء، مهما كانت يسيرة، لا بد وأن يغمر اللوحة في النهاية بنور باهر وضَّاء، يجعل منها هدفاً للاقتناء والاقتداء. قال لي أحد الصحفيين أثناء مقابلة مع إذاعة الـ B.B.C اللندنية:

«إنني آسف لظاهرة لاحظتها مراراً، إن أي خطأ تقوم به سيدة محجبة، كأن تقود سيارتها في شوارع لندن وترتكب خطأ ما في قانون السير الإنكليزي، هذا يجعلها محط أنظار واستهزاء الجميع، في حين لو أنها كانت غير محجبة فإن خطأها لن يلفت النظر أبداً».

أجبته:

الحقيقة أنني في غاية السعادة لذلك! فهذا لا بد أن يحث المرأة المسلمة المحجبة على الحصول على شهادة القيادة بجدارة وإتقان بالغين، يقيها من الوقوع في الخطأ.

وبدوره لا بد أن يؤدي ذلك إلى الارتقاء بسوية المسلمات، ودفعهن إلى الإتقان والجدية في كل مجالات الحياة، من دراسة، أو بحث علمي، أو عمل يدوي، أو... الخ.

أي إن هذا يساعد على اكتمال مجموعة صور المرأة المسلمة، كما رسمتها الشريعة الإسلامية.

بعد اتخاذي لباس التقوى بشكل دائم، فوجئت أنني قد حصلت على معظم الصور فيه، كإرث تلقيته عن والديّ، ليس تحت شعار ديني، ولكن كأسلوب من تربية رصينة محافظة:

● جملةٌ سمعتُها أنا وأختاي من والدي مراراً: «الفتاةُ سُمعَةٌ»، ولقد وجدتها في الشريعة الإسلامية في قول رسول الله ﷺ:

«كُلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته، الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته، والرجلُ راعٍ في أهله ومسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيَّتها، وكلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته»[1].

● الحضُّ على الأدب أثناءَ مخاطبة الآخرين مهما كانت إساءتُهم، وجدتُّه في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

● وصافرةُ الإنذار التي تُطلق عند كل خلجة أو سكنة أو تصرف: «إياكِ هذا عيب». وجدتها في قول رسول الله ﷺ:

«الحياءُ شُعبةٌ منَ شُعَبِ الإيمان»[3].

---

(١) متفق عليه. البخاري: كتاب الجمعة، باب: ١٠، حديث: ٨٥٣. ج١/٣٠٤.
مسلم: كتاب الإمارة، باب: ٥، حديث: ١٨٢٩. ج٣/١٤٥٩.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) متفق عليه. البخاري: كتاب الإيمان، باب: ٢، حديث: ٩. ج١/١٢.
مسلم: كتاب الإيمان، باب: ١٢، حديث: ٣٥. ج١/٦٣.

واتخذتُ لي مقعداً وسطاً أمام اللوحة

وشيئاً فشيئاً أخذت المجموعة تكتملُ لديَّ، فلم أعد تائهةً في هذا الأفق المترامي الأطراف. اتَّخذتُ لنفسي مقعداً في الوسط أمام لوحة الحجاب، وإذا بي أسمع أصواتاً من هنا وهناك. البعضُ يهزأ باللوحة، والآخر يزدريها، وثالث يأتي فيسدل عليها ستاراً كثيفاً، ورابع يعمد إلى تحطيمها.

ووجدت نفسي أرفع صوتاً للاحتجاج: مهلاً!... قد لا أملك رصيداً كافياً في الفقه الإسلامي، فهذا العلم له أصحابه، ولكن لعلِّي بما أوتيت من تحصيل علمي يجعلني أقيم الأمور بطريقة عقلانية، وبما وهبت من مشاعر الفنان الصادقة، أملك معهما رصيداً كافياً يمتلىء به العقل والقلب... يؤهلني كي أقول كلمة ليست مهمتي كناقدة من مجموع النقاد أن أحضَّ على اقتناء اللوحة، بل تنحصر مهمتي في أن أقيِّمها، وأن أشرح حيثيات تقييمها، ويتفق هذا مع رأي الشريعة الإسلامية، التي لم تحمل يوماً عصا القهر والإلزام، بل حملت سراج الهداية، وأتت بالفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، الخطأ والصواب، العلم والجهل، الهدى والضلال، الإفراط والتفريط، التطرف والاعتدال. قال الله سبحانه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1].

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) آل عمران: ٢٠.

ولكن إن كان أسلوب الشريعة الإسلامية بمنأىً عن العنف، فهو لا يخلو من القوة والحزم، الذي يأبى التراخي والتواطؤ، ولا مكان فيه للمراوغة والنفاق، أو الكذب والبهتان، وإن كان لكل فريق رأيٌ، فإنَّ لكل رأي تبعةً، ولكل تبعة مصيرٌ.

وهكذا نسقت الفرق في مراتب ودرجات. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[1].

هذه الكلمات توحي بكرامة هذه الأمة على الله، وتوحي بضخامة التَّبِعَةِ الناشئة عن هذا الاصطفاء، وعن تلك الوراثة، وهي تَبِعةٌ ضخمة لها ثمنٌ وتكاليف والتكاليف ضخمة لمن يبادر بالخيرات، ويسعى لأن يكون من هذا الفريق حتى ينال الفضلَ الكبير من الله سبحانه والجزاءَ الأوفى.

وتقلُّ التكاليف للمقتصد، وبالتالي ينقصُ الفضل لأصحاب الفريق الثاني ويقلُّ الجزاء.

أما الفريق الثالث فهو الشحيح، الذي يضنُّ على نفسه بالخير، إنه الظالم لنفسه الذي ينتابه الجزَع عند مقام الإنفاق.

قد يكون ظلم النفس عاتياً، ولكن ظلم الآخرين أعتى وأشد. وكما قال رسول الله ﷺ: «**مَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها، وأجرُ من عملَ بها من بعده، من غير أن**

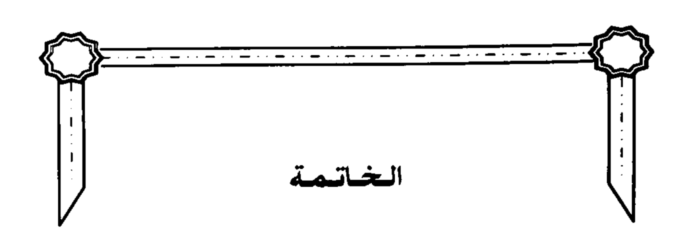
(١) فاطر: ٣٢.

(٢)

ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سُنةً سيئةً، كان عليه وزرُها، ووزرُ مَن عمل بها مِن بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].



(١) أخرجه مسلم.



الخاتمة

أيُّها النُّقَّادُ الواقفونَ أمام لوحةٍ اسمُها «لباس التقوى».

يا أنصافَ المثقفين، المجادلينَ بغيرِ علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير.

أيُّها المجاهرون بالعداء السَّافر للإسلام وأحكامِه، الداعون إلى العري الجسدي، باسمِ الموضةِ والحضارة والزينة.

أيها الحاملون معولَ السَّحق، للإجهاز على جذور هذا الدين الحنيف، في صورةٍ عواطفَ غامضةٍ في أعماق النفوس.

أيها المغمضون عيناً عن الحقيقة، الفاتحون أخرى وفقَ الهوى والرغبات.

أيها الباحثون المثقفون، القابعون في زوايا النقد القصية، المتجاهلون وِقفةَ الإسلام في الاعتدال والوسطيَّة.

أيها العلماء والفقهاء، الحاملون مشاعلَ الحقِّ المطفأة، لم يبقَ من مشاعلكم سوى دخانٌ حجبَ الحقيقة.

أيها السَّاعون لتحديث هذا الدين التامِّ الكامل وعَصَرنته، العاملون على دفعهِ إلى غِمارِ موكبِ حضاري مضطرب متزعزع.

أقول لكم كلمة:

إن لم تكونوا مِن أهلِ التَّقوى

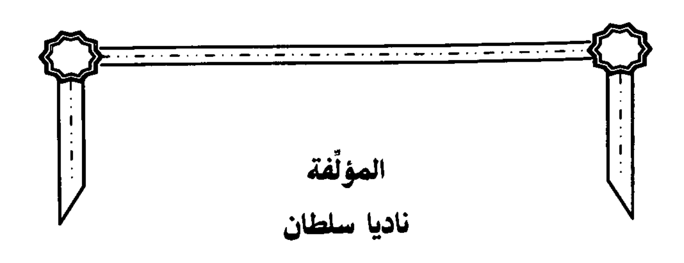
فدَعُوا لأهل التقوى لباسَهم.

فإنَّ للتقوى لباساً.

إنَّ للتقوى لباساً.

نادیا مُظفَّر سلطان

حلب ٢٢/٤/١٩٩٨م



المؤلّفة
ناديا سلطان

● خريجة جامعة حلب ـ كلية الهندسة المعمارية.

● أقامت العديد من المعارض الفنية التشكيلية في حلب، وفي كندا: مونتريال وتورنتو.

● في كتابها الصادر عام /١٩٩٧/ تحت عنوان: «التصوير بالكلمات: مشروع دراسة للصورة الفنية في القرآن» فتحت لنا الكاتبةُ نافذةً فسيحةً أطلَّت بنا على عالم الجمال في القرآن الكريم، وكانت دليلَنا في معرض الكون، وذلك في تلمُّسها روعةَ التصوير في الآيات البيِّنات من كتاب الله العزيز، متتبِّعةً عناصرَ الصورة الفنيَّة فيها، مِن شكل وظلّ ولون ومعنى، وكذلك من حركة وإضاءة وموسيقا، إذا أشارت في كتابها إلى لوحات فنيَّة، بعضها ينطوي على أسلوب ساخر «كاريكاتيري» وآخر يعني بتصوير الوجوه «البدرتريه» إضافة إلى الأسلوب الواقعي، وما فوق الواقعي «السيريالي».

● ولعل النَّافذةَ التي أطلَّت منها المهندسة ناديا سلطان على هذا المعرض البهيّ في دنيا الحضارة الإسلامية، هي ذاتها التي فتحتها على مصراعيها ليتدفَّقَ منها ضوءٌ ساطع يغمر لوحةً اسمها «الحجاب».

في كتابها هذا، تدعو المهندسة ناديا جموعَ النُّقاد، من معارضين أو مؤيِّدين إلى الوقوف من جديد أمام هذه اللوحة، لإعادةِ قراءتها من جديد، على ضوء التجربةِ الذاتية التي تحكيها لنا الكاتبة.

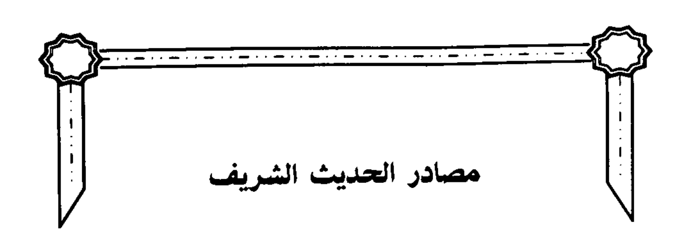
ثمَّ تعلن:

مهلاً، فهناك شروط ينبغي مراعاتها واحترامها والأخذُ بها، لكل ناقد يحلو له أن يقف أمام هذه اللوحة، ويدلي برأيه فيها.

بل إنَّها عامةٌ إزاءَ أية لوحة تُعرض في ساحة النقد الفني: من استراتيجية صحيحة، وسلامة نظر، وثقافة كافية، ونيَّة حسنة، وإضاءة جيّدة.

لوحةٌ لها قيمتها وتكاليفها لمن أراد الاقتناء، ولها قدسيتها واحترامها لمن اكتفى بالتَّأمل.





مصادر الحديث الشريف

١ - أحمد ابن حنبل، ت: ٢٤١ هـ، **المسنَد**، القاهرة، المطبعة الميمنية، طبعة مصورة عن الطبعة الأولى: ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م.

٢ - البخاري، محمد بن إسماعيل، ت: ٢٥٦ هـ، **الجامع الصحيح** تحقيق مصطفى البغا، دمشق، مطبعة الهندي، دون تاريخ.

٣ - الترمذي، محمد بن سَورة، ت: ٢٧٩ هـ، **الجامع الصحيح** «المعروف بسنن الترمذي»، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٤ - الحاكم، أبو عبدالله النيسابوري، ت: ٤٠٥ هـ، **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار المعرفة، دون تاريخ.

٥ - الدارمي، ، عبدالله بن بهرام، ت: ٢٥٥ هـ، **السنن**، بيروت دار الفكر، دون تاريخ.

٦ - أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: ٢٧٥ هـ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

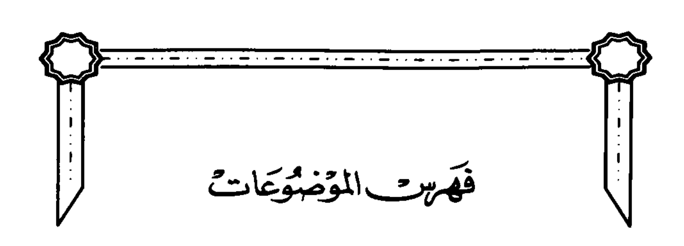
٧ - ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت: ٢٧٥ هـ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي /١٣٩٦هـ ١٩٧٥م/.

٨ ـ مالك، ابن أنس، ت: **١٧٩ هـ**، **الموطأ**، المغرب، دار الآفاق الجديدة، دون تاريخ.

٩ ـ مسلم، ابن الحجاج القشيري، ت: ٢٦١هـ، **الجامع الصحيح**، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، دون تاريخ.

١٠ ـ النَّسائي، أحمد بن علي بن شعيب، ت: **٣٠٣ هـ**، **السنن**، بيروت، دار القلم، دون تاريخ.





فهرس الموضوعات





موضوع كتابنا هذا الحجاب، ولكم وددت ومنذ زمن أن تكتب في ذي القضية امرأة، فهي الأقدر على الحديث عنها، وتقديمها للنساء خاصة حكماً شرعياً في مصلحة المرأة، وليس على حسابها، أو حساب شيء من كرامتها ومكانتها.

كاتبتنا فنانة، فنانة تشكيلية، ومن الفن انطلقت فكتبت، ومن أحاسيسها ومشاعرها ومعاناتها نهلت فسطَرت.

نادت نادية: إن لتقويم أية لوحة قواعد، فعلام إغفالها! ولي قصة مع الحجاب فاسمعوا ولا تهملوها.. فأنا من جملة المعنيات بها، والشاهدات عليها، ولرأيي اعتبار ما دمت مخاطبة فيها وبها.

من مقدمة الدكتور محمود عكام

ISBN 1-894264-72-X





Al-Attique Publishers Inc.
11-Progress Ave. Unit # 7
Scarborough Ontario M1P 4S7 Canada
Ph. 416 335 1179 Fax: 416 335 9293
Website: www.al-attique.com
Email: al-attique@al-attique.com